

السنة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

العدد الرابع

الاشتراكات

١٠٠ عن سنة كاملة
٦٠ عن نصف سنة
واللطموب
٨٠ عن سنة كاملة
٤٠ عن نصف سنة
٢٥ عن ثلاثة أعداد
يضاف إليها أجرة
البريد خارج القطر

المُسْتَلَمُونَ

مجلة إسلامية جامعة

تصدر مع غرة كل شهر عربي
ستتها عشرة أعداد

صاحب الامتياز

ورئيس التحرير

سعيد رمضان

الإدارة:

٣٢ شارع النيل
بالروضة بالقاهرة

مارس سنة ١٩٥٢

جمادى الآخرة سنة ١٣٧١

هذا القرآن

لفضيلة الأستاذ حسن الهضيبي

المرشد العام للاخوان المسلمين

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ » .

ليس في الدنيا كتاب أحاط بمسائل الحياة ، وربط بين شئونها ، وجعل بعض هذه الشئون أسبابا لبعض ، وحلّ مشاكلها في بساطة ويسر كالقرآن الكريم :

« لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » .

فإذا قرأته ، وتدبرت آياته وجدته كلا لا يقبل التجزئة ، ووجب أن ترجع مافيه من أحكام إلى أصولها ؛ حتى يتبين لك الحق فيها ، فلا تقتصر على حكم دون أن تُلقي بالا إلى ما يتعلق به من الآيات الأخر ؛ كما فعل ويفعل بعض المسلمين في كثير من المسائل .

ولنضرب لذلك مثلا الآية الكريمة : « وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا

جزاء بما كسبَا نكالا من الله ، والله عزيز حكيم » .

السنة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

العدد الرابع

الاشتراكات

١٠٠ عن سنة كاملة
٦٠ عن نصف سنة
وللطوب
٨٠ عن سنة كاملة
٤٠ عن نصف سنة
٢٥ عن ثلاثة أعداد
يضاف إليها أجرة
البريد خارج القطر

المُسْلِمُونَ

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربي
سنتها عشرة أعداد

صاحب الامتياز

ورئيس التحرير

سعيد رمضان

الإدارة :

٣٢ شارع المنيل
بالروضة بالقاهرة

مارس سنة ١٩٥٢

جمادى الآخرة سنة ١٣٧١

هَذَا الْقُرْآنُ

لفضيلة الأستاذ حسن الهضيبي

المرشد العام للاخوان المسلمين

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ » .

ليس في الدنيا كتاب أحاط بمسائل الحياة ، وربط بين شئونها ، وجعل بعض هذه الشئون أسبابا لبعض ، وحلّ مشاكلها في بساطة ويسر كالقرآن الكريم :

« لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » .

فإذا قرأته ، وتدبرت آياته وجدته كلا لا يقبل التجزئة ، ووجب أن تُرجع مافيه من أحكام إلى أصولها ؛ حتى يتبين لك الحق فيها ، فلا تقتصر على حكم دون أن تُلقي بالا إلى ما يتعلق به من الآيات الأخر ؛ كما فعل ويفعل بعض المسلمين في كثير من المسائل .

ولنضرب لذلك مثلا الآية الكريمة : « وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا

جزاء بما كسبا نكالا من الله ، والله عزيز حكيم » .

لا شك أننا إذا قرأنا هذه الآية وحدها منقطعة عن باقي القرآن ، وفهمنا السرقة بمعناها المنصوص عليه قانونا من أنها : (اختلاس مال مملوك للغير) شعرنا بشيء من التردد في أن يكون الأمر كذلك وأن يُعاقب السارق بقطع يده ، أو شعرنا بأن العقوبة رهيبة لا تتفق رهيبتها مع تفاهة السرقة في حد ذاتها ، أو تفاهة المسروق أحيانا . وهذا ما يعترض به كثير من المسلمين ، والأجانب على العموم ، ويبدون امتعاضا من هذا الجزاء الصارم . وهم معذورون في ذلك ؛ لأنهم لا يعرفون من أمر الإسلام ما يدعوهم إلى الاطمئنان إلى أنه حق من عند الله :

« وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ ، وَبِالْحَقِّ نَزَلَ » .

إن القوانين الوضعية لا تستقصى حالة السارق وقت السرقة ، ولا تستقصى أثر الحكم فيه ، وفي أهله وولده ؛ بل تعاقبه مطلقا . جاهلا كان أم عالما . فقيرا أم غنيا . بل ربما كان علمه وغناه من أسباب تخفيف العقوبة عليه لا من أسباب تغليظ العقاب . والأمر ليس كذلك في دين الله .

إن الله عز وجل أراد أن تنشأ العِفَّة من داخل النفس أولا ؛ فينصرف الإنسان عن المعاصي وهو في خلوته لا يطلع عليه أحد من الناس ، ويشعر بأن ربه معه أينما كان ، مطلع على أعماله ، لا تخفى عليه منه خافية : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة . إن الله بكل شيء عليم » .

وقد ذكر الله تعالى عقاب السرقة مرة واحدة ، ولكنه كرر النهي عن أكل أموال الناس بالباطل ، وصوره في صورة مؤثرة ترد من تحدته نفسه بأن يمد يده إلى مال غيره . دون حاجة إلى التخويف بالعقاب الدنيوي : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا ، وسيصلون سعيرا » ، « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتُدولوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » .

وفي الحديث عن الرسول عليه السلام : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام » .

وتأمل قول الله تعالى : « وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى ، وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ، وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا » .

تأمل : «من بعد ماتين له الهدى» : أعنى أنه يجب أن تبلغ الدعوة إلى السارق ، وتهذب بالتهذيب القرآنى ، ويعرف ماله وما عليه . مما يتعين معه القول بأن التعليم فى الإسلام إجبارى ، وواجب على الفرد ، وحق له فى الوقت نفسه .

فإحياء روح الإنسان وضميره ، وتزكية نفسه ، وتطهير قلبه واجب أول فى الإسلام ، عليه أكثر العول فى أن يسلك الإنسان سلوكاً حسناً فى الجماعة التى يعيش فيها .

وإذا كنا ندرك أثر التعليم العادى فى نفوس الناس ؛ فما بالناس بتعليم القرآن الذى هو أساس لكل الفضائل .

ولكن لا يكفى أن تهذب الشخص ، وتطهر قلبه ، وتزكى نفسه ، وتحبى ضميره لى يكون إنساناً فاضلاً ؛ فإن حاجاته الضرورية التى بها وقاية نفسه تغلبه على الفضائل أحياناً . لذلك قضى أحكم الحاكمين ، وأعدل العادلين بأن يوجد فى الدين من النظم ما تندفع به حاجة الإنسان إلى السرقة . وبمعنى آخر لابد من أن نتأكد قبل أن نعاقب إنساناً أن عذره فى ارتكاب جنايته قد سقط ، وأنه لم يرتكبها إلا بغياً وعدواناً .

وحاجات الإنسان الضرورية هى : *مركزية كميونى علوم ردى*

(١) بيت يسكنه يواريه عن أعين الناس ، ويجعله فى أمن من العادين والباغين .

(٢) طعام يحفظ به نفسه .

(٣) ملابس للصيف والشتاء .

وأقول : إن الآيات والأحاديث التى أخذ منها الفقهاء النص على هذه الأشياء الثلاثة تستوجب القول بأنه يجب أن يكون مضموناً لكل إنسان العلاج المجانى من الأمراض ؛ متى لم يكن قادراً عليه .

هذه الضرورات لا يحصل عليها امرؤ بالاستجداء ؛ بل لابد من العمل . ودينه يحضه على ذلك : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » .

وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يد عامل ورمت من العمل فأخذها وقبّلها وقال : « هذه يد يحبها الله ورسوله » . وجاءه رجل يسأله فلم يعطه ما سأل ؛ بل أعطاه أداة العمل ، ووجهه إليه ، وقال : « ارجع إلى لتبشئ بحالك » .

فيجب حينئذ على ولى الأمر أن يساعد الناس على إيجاد أعمال لهم ، ويهيئ لهم أسباب العمل ، ويتعهدهم حتى تصلح حالهم .

فإذا كان دخل إنسان لا يكفيه ، أو لم يجد عملاً ، أو كان غير قادر على العمل فهو فى كفالة الدولة تمده بأسباب الحياة الضرورية التى بينها .

أما المال الذى يلزم لذلك فيؤخذ من الزكاة التى جعلها الله فى أموال الأغنياء حقاً للفقراء . فإن لم تكف الزكاة لسد حاجات الفقراء أصبح فرضاً على كل من عنده فضل من مال أن يعود به على الفقراء حتى يستوفوا حاجتهم .

فإذا منع الفقير حقه فله أن يقاتل عليه ؛ لأن الله يأمر بمقاتلة الباغين « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداها على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تنفى إلى أمر الله » ولا شك أن مانع الحق باغ .

فلما كفل الله عز وجل للفقير حقه ، وأباح له القتال عليه ؛ كانت العقوبة الهينة مفسدة للمجتمع ، ولا تتفق مع المسؤوليات التى فرضها الله على الناس . فكان جزاء من سرق — بعد أن استوفى حقه — أن تقطع يده ، وليس بعد ذلك توازن فى الحقوق والواجبات « وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ قِيلاً » .

لا شك أن الإنسان حين يعلم ذلك ، وينتهى إلى أن النص على عقوبة السرقة مكمل بنظام اجتماعى محكم تستريح نفسه إلى عدالة العقاب ، وتطمئن إلى حكمة العزيز الحكيم .

هذه العقوبة الغرض منها زجر البغاة عن أن تمتد أيديهم إلى مال الناس بالباطل . وهذا يكفي لانتقطاع السرقة من المجتمع الذى تسود فيه العدالة الاجتماعية على هذا النحو .

وهكذا يجب أن نقرأ القرآن ، وتدبر آياته ، ونربط بعضها ببعض ، ونربطها بما ورد عن العصور عليه السلام المبين عن ربه ؛ لكي نعلم أن كل ما جاء به القرآن الكريم إنما هو حق لا شائبة فيه ؟

قَصَصُ الْفِرَآءِ

آءَم عَلَيْهِ السَّلَام

عرض وءءللل للآسءآذ البهى ءءولى

(٤)

بين الشيطان والإنسان :

« ولأضللهم ، ولأمنلنهم ، ولآمرنهم فلللسكن آذان الأنعام ، ولآمرنهم فلىغيرن
ءلق الله (١) » .

أفصء الشيطان — أول الأمر — عن هدفه فقلال : « لأقعدن لهم صراطك المسءقم » .
ثم بين وسيلءه إلى ذلك فقلال : « لأزلىن لهم فى الأرض ، ولأغولنهم أءمعىن ،
إلا عبادك منهم المءلصىن » .

ثم فصل عناصر تلك الوسيلة فقلال :

١ — ولأضللهم

٢ — ولأمنلنهم

٣ — ولآمرنهم فلللسكن آذان الأنعام

٤ — ولآمرنهم فلىغيرن ءلق الله

وإراء هذه الأربعة فى القصة بلىن فضل الله على عباده ، ورحمءه بهم ، وما ىرىء لهم
من هءاية ورساء ، وفوز فى الدنيا والآخرة : « ىرىء الله لىلىن لكم وىهءىكم سنن الذىن
من قبلكم وىءوب علىكم والله عللم ءكم (٢) » .

(١) النساء — ١١٨ .

(٢) النساء — ٢٦ .

ذلك كل عمل الشيطان مجموعاً في أربعة أمور ؛ وما يسوغ لنا أن نمر بها ونحرق فيها ونحن عنها معرضون كأننا لا نقرأ شيئاً أو لا نفقه ما يقال ! . فمن وجد من نفسه تلك الظاهرة — ظاهرة التبلد بإزاء المعاني الكبار — فليعلم أن القصة الكريمة تدعوه أن يكون إنساناً مرهف الحس ، يقظ المدارك ، يقدر كل ما في الوجود من قيم ظاهرة وباطنة .

والناس ما كانوا يوماً بحاجة إلى من يعلمهم أن الواحد نصف الاثنين ، وأن الكل أكبر من الجزء ، وأن كسب المال يحتاج إلى سعى ، وأن جنى الثمر يحتاج إلى غرس ؛ فهم أعلم بشئون دنياهم على ما ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولكنهم كانوا — وما زالوا — بحاجة إلى من يبصرهم بقيم الأشياء ، ويحلوا لهم صريح المعاني . ومن أجل ذلك أرسل الله لهم رسوله يعلمونهم الكتاب والحكمة ، ويعلمونهم ما لم يكونوا يعلمون .

وإذا سألنا أن تقول على سبيل التقريب والتمثيل ، قلنا إن صفحة العقل ذات وجهين : وجه تستقبل به ما ظهر للحس من شئون الحياة الدنيا ، فتدركه وتمنطقه وتعرف وسائل الانتفاع به . . وآخر تستقبل به ما خفي عن حواسنا من لباب الحق وأسرار المعاني ؛ فتدرك منه ما يبين لنا مركزنا في هذا الوجود ، وحقائق العلائق بيننا وبين ما حولنا : بيننا وبين الله . . وبيننا وبين الكائنات السمعية . . وبين بعضنا وبعض . . وعلاقتنا بما في الأرض من ثروة وثمر وزينة . . وترسم لنا — ببيان هذه العلائق — الطريقة المثلى ، والصراط السوى الذى يكفل لنا خير الدنيا والآخرة .

فليس معنى نجاح أى امرئ في حيازة المال وإصابة الشهرة أنه صار بمواهبه الظاهرة في غنى عما يهدى إليه عقله الروحى ؛ فإن النسبة بين ما تهدى إليه حواسنا المعروفة ، وملكاتنا العادية — وما يهدى إليه عقلنا الروحى وملكاتنا الخفية — كالنسبة بين ما ترى لنا العين الصناعية والعين الطبيعية : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » .

ذلك هو الشأن في إدراك المعاني ، وقيم ما في الوجود من أمور ، لا يغنى عنها

ما يحصل المرء من معارف دنياه القرية ، ولما ينال فيها من ثروة وجاه إلا ما يغنى الظلام الدامس عن ضوء الشمس في رابعة النهار ؛ فإذا أحسنا التأمل في تلك الأمور الأربعة التي تعرضها القصة — على ضوء ما قدمنا — تبينت لنا بشاعة المسخ الذي يريد الشيطان أن ينزله بنا ، وعرفنا كيف نجبط كيده ونحجز أنفسنا منه .

ولأضلنهم .

قال صاحب المصباح المنير : « والأصل في الضلال الغيبة ومنه قيل للحيوان الضائع ضالة » وقال في أساس البلاغة : « ضل الماء في اللبن واللبن في الماء إذا خفي فيه وغاب » ومنه قوله تعالى : « أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد ^(١) ؟ » أي أئذا متنا وغيبتنا الأرض وصرنا ترابا كترابها أئنا لمبعوثون ؟

واستعمل للأشياء تضييع معالمها من الدهن لطول العهد أو نحوه كقوله تعالى : « أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ^(٢) » .

واستعمل الضلال كذلك في ذهاب الإنسان عن صوابه .

مركز تحقيق كاميون علوم إسلامي

والصواب نوعان كما عرفت :

نوع ينير لنا أفق الأمور الظاهرة ، ويبين لنا سنن الله في ترابط الأسباب بالمسببات ، والمقدمات بالنتائج ، وعلاقة الأشياء بعضها ببعض ، وسبل الانتفاع بها . . . فإذا غاب المرء عن صوابه هذا زال عنه ما يعرف من روابط بين الأشياء ، واضطرب أمره ، وصار لا يستبعد عليه أن يطلب نتيجة بغير مقدمة ، وينتظر من الأشياء أن تؤتيه ما ليس من طبيعتها . . . وهذا في بابه هو الضلال . . . ولقد ظل يعقوب عليه السلام يذكر يوسف ولا ينقطع له رجاء في لقائه لما كان يُلقي الله في نفسه من طمأنينة ؛ أما أبنائهم فكانوا يعتقدون أنه قد هلك أخوهم في الحب ، أو ذهبت به صروف الرق في السنين المتعاقبة إلى حيث لا يرجى له لقاء ، ولذا كانوا يرون في طول لهج أبيهم به

(١) السجدة — ١٠

(٢) البقرة — ٢٨٢

وتوقعه لقاءه ضرباً من التعرض للمستحيل ، وأثراً من الفسند وذهاب اللب فيقولون له : « تالله إنك لني ضلالك القديم » .

والصواب الآخر هو الذى يكشف لنا أفق المعنويات ، ويرينا قيم الأشياء ، ويبين لنا مكان كل منها فى المجتمع . . . فإذا غاب المرء عن صوابه هذا زال عنه إحساسه بالقيم المختلفة ، وصار لا يبالي أن يضع معنى من المعانى فى غير موضعه الذى هو له . . . فالعبودية — مثلاً — معنى من المعانى الأصلية فينا ، ولكن موضعه الحق أن نجعله لله رب العالمين ؛ فإذا زال عن امرئ صوابه لا يبالي أن يضعه فى غير موضعه فيعبد نفسه لمن شاء وما شاء من خلق الله . . . وذلك هو الضلال الذى لا يريد لنا الشيطان سواه ! . . .

فهذان الضربان من الضلال أساسهما ضيعة الصواب وذهاب اللب ، غير أن ضيعة الصواب فى أفق المحسات آفة من قدر الله تعرض للمرء كما يعرض له أى طارئ من مرض ، ولا حيلة له فى ردها إذا ألمت ، ولا يد له فيها إذا زالت ؛ ولذا يعتبر صاحبها فى القانون الوضعى غير مسئول ، وفى شريعة الإسلام غير مكلف .

أما ضيعة الصواب الروحى فأمر إرادى محض ، فهو حين يعتدى على مال أحد — مثلاً — أو حياته ، يستطيع أن يكف نفسه عن إنفاذ جريمته إذا جعل لإرادته سيطرة على الموقف . . . وهل توبة التائبين وورع الورعين إلا لون من سيطرة الإرادة ؟

والصواب فى أفق المحسات يقوم على قوانين ذهنية ، وأقيسة منطقية . . أما فى أفق المعنويات فقوامه يقظة شعورية يستشعر بها المرء بشاعة الرذيلة وجمال الفضيلة ؛ فينتقبض عن طيف الأولى وينبسط لنور الأخرى ؛ وبها يكون غضبه لحارم الله ، وجهاده وبذله فى سبيل الحق : أى أنه حين يقبل على شئ أو ينصرف عنه لا يخضع لمنطق ذهنى بقدر ما يخضع لسلطان الحس وإملاء الشعور .

فإذا انطفأت جذوة ذلك الحس استوى لديه جمال الفضيلة ، ودمامة الرذيلة ، وصارت المثل العليا قيماً كاسدة لا تساوى شيئاً فى سوق عرض هذا الأدنى .. وهو من شر ضروب الضلال التى يصرف إليها الشيطان جهده .

والضلال بنوعيه مجافاة لسنة الله في الأشياء ؛ فالذى يتضعض لذى جاء أوغى ليصيب مما عنده كالذى يستبدل حفنة من التراب بقبضة من اللؤلؤ ، كلاهما يجافى منطق المعاوضات في سوق الأخذ والعطاء ؛ إذ يستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ... والناس لا يرون في ميدان المحسات — بطبيعة الحال — من يزاول صفقة اللؤلؤ والتراب لأنه عتته ، ولكنهم يجدون للصفقة الأخرى — لو كشف عنهم العطاء — من يزاولها في كل أفق ، وهو لا يدري ما يصنع بنفسه من بوار ووكرس ، بل وهو يظن بنفسه الألمعية والحصافة إذ كسب لها الزلفى عند فلان وخسر لها الجاه عند الله ، واشترى لوجهه قناعا من المهانة بما كان فيه من وضاعة العزة والمروءة والاستغناء .

وإذا كان الضلال كذلك فالهدى هو تحرى سنة الله سبحانه ، وإقامة الأعمال على مقتضاها ؛ فمن أخذ بمنطق تلك السنن أقبلت عليه أخلافاها بكل مألدها من رزق حسن للدنيا والآخرة ..

والحقيقة الكبرى التى تلتقى عندها سنن هذا الوجود : هى أن الله سبحانه مصدر كل عطاء ، وواهب كل خير ، وهو المعبود على بصيرة ، والمدعو بحق ، وله دعوة الحق .. فمن بسط إليه كف رجائه ، وتعرض بقلبه لنفحاته ينتفى حياة لنفسه ورياً لظمئه كان خليقا أن تقبل عليه سنة الله بما دعا به : « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » فلا يلبث أن يجد في قلبه بل الصدى ورى الظمأ ، وطمأنينة النفس وسعادة الحياة « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .. وذلك هو الهدى فى أوضح صورته وأنصح حقائقه

وللضلال ألوان كثيرة ، وأسباب موصولة بها مفضية إليها ..

فقد يضل الإنسان — أو يغيب عن صوابه — إذا هو ساير طغيان غرائزه أوقواه النفسية الحيوانية كلما دعتة إلى سبيل من سبلها ؛ فإذا سيطر عليها ، وكبح جماحها ، ووجهها إلى ما يزكها بأمر الله ؛ فقد عصم نفسه وأحرزها من ضلة الشيطان ...

وهذه امرأة العزيز ترى فتاها وقد نضر حسنه ، وراق شبابه فتشور بها رغبة جامحة إليه تنسى معها أو تهدر كل قيمة فاضلة ، وكل اعتبار أدبى واجتماعى يحف بمنزلتها :

أهدرت قيمة العرض والعفة . وأهدرت حق الزوج وماله من رعاية .. وتجاوزت فارق السن بينها وبينه .. واستباححت رباط التبني الذي أراده العزيز بقوله : « عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » .. وضربت صفحا عن كل احتمال لما يثور في المجتمع من أقاويل الناس عنها ، وأقبلت في ضلالها عن هذا كله تقول له هيت لك بعد أن غلقت الأبواب ، فيتأبى عليها ويستعصم .. ويتسرب الخبر الأثيم من وراء الأبواب والجدران فإذا نسوة في المدينة يقلن : « امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إن لراها في ضلال مبين » .

وقد تكلم علماء النفس في علاج طغيان الغرائز بما سموه « الإعلاء » أو « التسامى » وسماه القرآن الكريم تزكية « قد أفلح من زكاهها وقد خاب من دساها » ولكن ما أوردوه في ذلك لا يبلغ أن يكون شيئا إلى جنب ما جاء به القرآن الكريم ؛ ونرجو أن نعرض لبعضه فيما نتناول من القصص إن شاء الله ، فنسأله المعونة والتأييد ..

وهذا موسى عليه السلام — قبل أن يبعث وهو شاب في عنفوان الشباب — تهب عليه هيجة من غضب ، من قبل قواه الغضبية ، أو من قبل غريزة المقاتلة كما يسميها المحدثون ، فقد رأى إسرائيليا من شيعته يشتجر مع مصرى من عدوه ، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ، فكأثما حضره كل ما يجد في صدره من موجدة على الوضع الباغى الذي جعل قومه أذلة في مصر لفرعون وملئه ؛ فوجه قبضته عنيفة إلى المصرى فقضى عليه !

وصواب المرء في عالم المعنويات يمدد بحساسية مرهفة تقدر كل قيمة في المجتمع . حساسية إذا رأت الصغير أو الكبير لا ترى فيه إلا حرما مقدسا تهب أن تستبيح له حرمة سرا أو علانية ، فتقدس لكل فرد إنسانيته وحرية ودمه وعرضه وماله ؛ بل تقدس لكل حيوان أو جماد ماله من حق وحرمة ، لا يحملها على ذلك خشية قانون أو خوف أحد من الناس ، إنما يحملها عليه ما تستشعره لتلك المعاني من جلال وهيبة .

لقد غاب كل ذلك عن موسى — عليه السلام — في هيجة الغضب ، فلما سكنت حدته وصفا له صوابه تبين خطأ ما أقدم عليه في تلك اللحظة الخاطفة فأسف وندم

وأقبل على الله مستغفراً مقرأً بما أتى : « قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي . فغفر له إنه هو الغفور الرحيم » . . . ولقد سماها موسى عليه السلام ضللاً في حاجته لفرعون : « فعلتها إذا وأنا من الضالين » . . . بل إنه حين سكنت ثورته وعاد إلى صوابه وتبين بشاعة ما ألقى الشيطان في ثورة غضبه قال : « هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين » .

وفي هذا المثل جوانب كثيرة جديرة بالبحث والتحليل ، ولكن الذي يعيننا منها في هذا المقام أن حدة الطبع ما لم تسيطر عليها الإرادة قد تهبُّ منها بفعل الشيطان ريح تعصف بصواب المرء : أي بتقديره لقيم الحقائق والمعاني ؛ فإذا تصرف حينئذ تصرف على غير هدى فيكون القتل لديه — مثلاً — عدلاً لمشاجرة تافهة تعرض له أو لأحد من شيعته ، أو عدلاً لدراهم معدودة يطلها أو يحجدها غريم لا ذمة له على نحو ما نرى في حياتنا العامة . . . وذلك من صميم الضلال الذي يبغيه الشيطان ، فلنعرفه ولنأخذ الأبهة لسد مسالكه ، ولنحذر الغضب — حتى حرّمات الله — أن يدخل علينا ما ليس من الصواب . . . وقد أسلفنا في المقالات السابقة عن الغضب ووسائل توقيه ما فيه غنية لمن يريد أن يقف على هذه الثغرة من ثغور النفس .

ومن الضلال ما يستدرج إليه المرء بالتعرض لما لا يطيقه عقله من المعارف الروحية . فالعقائد أمور روحية صرفة ، لا يستقل العقل ببيان حقائقها وتجليّة أصولها وأسرارها ، ولا طاقة له بتصوّر هيئاتها ؛ فهي من اختصاص النبوات التي تتلقى الوحي بها من الله سبحانه . فإذا ذهب امرؤ يجتهد لنفسه فيها فقد زج بعقله في أفق ليست له طبيعة منطقنا العادي ، ولا معالم مما اعتادت عقولنا أن تهتدي بها . . . أي أنه يغيب عن صوابه باختياره ، وذلك من أخطر أنواع الضلال .

ولقد ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه فما كان أسرع من السامري إذ اتخذ لبنى إسرائيل عجلاً جسداً له خوار ، ففرحوا به والتفوا حوله . . . ولعل تصورهم السقيم قاس عجّل السامري بما كانوا يرون للمصريين من عجول معبودة فتقبلوا بسذاجة حكم هذا القياس ، وأملت لهم أوهامهم أن يقولوا هذا إلهمكم وإله موسى الذي ذهب للقائه في جبل الناجاة . . . ولكنهم ما لبثوا حين عاد إليهم موسى غضبان أسفاً أن تبينوا

ما وقعوا فيه من ضلالة وأقبلوا على الله تائبين مستغفرين : « ولما سَقَطَ في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويفغر لنا لنكونن من الخاسرين » .

وما كان لهم أن يقبلوا شيئاً من أمور العقيدة غير ما تركهم عليه نبهم ، ولا أن يستنتجوا ذلك الحكم المغرق في الضلالة : هذا إلهكم وإله موسى الذي ذهب للقائه في جبل المناجاة ... « ولقد قال لهم هرون من قبل ياقوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري » ولكن إعجابهم بما توصلوا إليه من فكرة سخيفة سَوَّلَ لهم أن يردوا عليه بقولهم « لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى » .

والعاصم من هذا الضرب من الضلال الوقوف عند كل نص قطعي الثبوت والدلالة مما جاء به المعصوم صلى الله عليه وسلم لا يزيد عليه ولا ينقص منه ، ولا تتكلف الحوض أو الاجتهاد في غير محيط دلالاته الصريحة .

وهذا يقفنا على باب خطير كثر فيه اللدد والجدل منذ ضحى الإسلام إلى اليوم دون أن ينتهى مراءؤهم إلى غير التفرق والتنازع ، فذشير إليه ولا نلج له عتبة ، ونحذر من شره ، فهو إن لم يعقب زيفاً في العقيدة أعقب فرقة موهنة للوحدة ، وكله من ضلال الشيطان . . . ولو أنهم اتقوا الله فيما لديهم من نصوص القرآن الصريحة ، واكتفوا بالأصول دون الفروع لما فرقوا دينهم شيعا ، ولما ذهبوا مُللاً متباغضة على هذا النحو المشين !

وقد يكون من ضلال العقل أيضاً أو إضلالة أن يتحدث المرء إلى أقوام بحديث لاتناله عقولهم فيكون فتنة لهم ، وهذا معنى حديث شريف لرسول الله صلى الله عليه وسلم .
وليس أسلم نية ولا أصفى سريرة من جماهير الناس .

وليس أظلم سريرة ولا أخبت نية ممن يندس بين هذه الجماهير في المجتمع الهاديء ليشيرهم إلى ما ليس من اختصاصهم ، أو إلى ما لا يحيطون بعلمه من حديث المسائل العليا .

ولكل قوم سامرى يشيرهم إلى فتنة في العقيدة أو فتنة في نظام المجتمع ، ولقد أثير الفوغاء في فجر الإسلام ليعالجوا ما سمى لهم فساداً في سياسة عثمان رضى الله عنه ، فزحفت جحافلهم الهائجة الماثجة من الأقطار المختلفة ، وخرج الأمر من نطاق أهل

الحل والعقد، وانتقل زمامه إلى تلك الأرجال المختلطة الأهواء المتباينة المشارب فأصيب الإسلام بصدع في وحدته لا يزال قائماً للآن .

وليس قتل عثمان رضى الله عنه هو الصدع — على ما فيه من بشاعة ونكر — بل الصدع هو انشعاب المسلمين إلى مذاهب ونحل متعادية متحاربة إلى اليوم ... ولا يريد الشيطان في جماعة من الجماعات أكثر من هذا !

والعاصم من ضلال هذه الفتنة هو احترام الأوضاع الصحيحة لكل جماعة وأهمها تدبير المسائل العليا بعرفة العدول من أهل الحل والعقد — فيما بينهم وبين الإمام — مع انصراف العامة إلى ما يحسنون .

فإذا أرادت جماعة ما أن تعرف مبلغ هداها أو ضلالها عن الصواب :

فليُنظر أهل الحل والعقد هل تخلوا عن واجبهم في رعاية أمر الجماعة ؟

ولينظر العامة هل هم يستيحيون الحوض في منازعة أهل الحل والعقد ولاية اختصاصهم ، أو يخرجون من ذلك ؟ !

ولينظر الأفراد من مدعى النصح والغيرة على الإصلاح ، هل هم يأتون البيوت من أبوابها فيدخلون على أهل الحل والعقد مباشرة ، أو يأتونها من ظهورها فيتحدثون إلى العامة بما لا تطيقه أذهانهم ، ويشيرونهم إلى ما لا يحسنون ؟ !

ذلك هو مقياس النظر الصادق الذى يتبين به الجميع ما عليه كلٌّ من صواب أو ضلالة ؛ إلهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة .

« يتبع »

« الشهيد حى »

بِالله لا تنسوا ربوا قتلى ولا تهنوا
بَعْدَى ، ولا تفرقوا فى النوح والحزن
إنَّ الشهيد حىٌّ عند خالقه
وإنما الميتُ حقاً خائن الوطنِ

« مكيب أرسلونه »

بين الوحي والسيرة

(٢)

حدثنا الشيخان فيما نقلنا عن عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها : « جاء الحق وهو في غار حراء ، جاءه الملك فيه فقال : اقرأ ؛ قال فقلت ما أنا بقارىء ، قال فأخذنى فغطى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ؛ قال قلت ما أنا بقارىء ، قال فأخذنى فغطى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ؛ فقلت ما أنا بقارىء ؛ فأخذنى فغطى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال : « زملونى . زملونى » . فزملوه حتى ذهب عنه الروع . ثم قال لخديجة : « أى خديجة مالى ؟ وأخبرها الخبر قال : لقد خشيت على نفسى » قالت له خديجة : « كلا . أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا . والله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق »

إن الله سبحانه يعلم أن هذا المختلئ فى الغار أمى لا يقرأ ولا يكتب ، فكيف ينزل عليه الوحي بقوله : « اقرأ ؟ » .

إن للقراءة معنيين : — أما أحدهما فهو التلاوة على مثل ما فى قوله سبحانه « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث » أى لتتلوه عليهم ، وأما الآخر فهو النظر فى الحروف المعروفة ، وما تؤلف من كلمات لاستخلاص ما جاء فيها من المعانى .

فأى المعنيين تطيب له النفس ، ويسكن إليه القلب ؟ .

لقد ذكر كثير من العلماء المعنى الأول وقالوا : إن معنى « اقرأ باسم ربك » اجعل قراءتك وتلاوتك للقرآن مبدوءة باسم الله

ونحن لا نمنع هذا ولا نعارضه ، ولكننا نرى فى خبر عائشة ما يجعل المعنى الثانى راجحاً مقبولاً . . . فلو أن المطلوب هو مجرد التلاوة لقال له الوحي : اقرأ كذا وكذا مما أتله عليك ، ومما سأتلوه فيما بعد . ! ! .

ذلك إلى أن الرسول نفسه انصرف ذهنه إلى القراءة بمعناها الثانى فأجاب : ما أنا بقارىء ! ! أى أننى أمى لا أقرأ ولا أكتب . . . ولو كان جبريل يريد معنى التلاوة لأجابه حينئذ بأن المراد هو التلاوة لا قراءة الحروف والكلمات التى لا يديرها الأميون ! ! .

وتكرر قوله صلى الله عليه وسلم « ما أنا بقارىء » ، وتكرر قول جبريل له : « اقرأ » دون أن يحوله عن المعنى الذى استقر فى ذهنه من معنى القراءة
ونحن نعلم أن الوحي كان ينزل أحياناً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحح له حكماً اجتهد فيه فأخطأ ، فأولى ثم أولى أن يصحح له ما أخطأ فى فهمه من مرامى الوحي حين نزوله عليه . . . فسكوت جبريل عما ذهب إليه ذهن الرسول من معنى القراءة فيه إقرار له على ما فهم

ذلك إلى أن ما دار بين الوحي والرسول لا يحتمل القراءة بمعنى التلاوة . . . فقد فسر أصحاب هذا الرأى — كما سبق — « اقرأ باسم ربك » بأن معناها اجعل تلاوتك مبدوءة باسم الله . . . فإذا سألت أين الكلام الذى سيجعل تلاوته مبدوءة باسم الله ؛ لا تجد شيئاً إلا قوله سبحانه : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » فأين فى هذه الآيات الكريمت ما يصح أن يكون الرسول أمر بتلاوته مبدوءاً باسم الله ؟ .

إن كل ما جاء بعد قوله سبحانه « اقرأ باسم ربك » إن هو إلا صفات للرب عز شأنه ، وليس منها ما تعتمد اللغة أو العقل على أنه هو المتلو الذى تبدأ تلاوته باسم الله !!
ولعل أصحاب هذا القول ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه لما علموا من أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستحالة أن يأمره الله سبحانه بقراءة الحروف التى تؤلف الكلمات ، وترمز إلى المعانى ، فلم يكن لهم بد من أن يختاروا للقراءة معنى لا يتعارض مع أميته صلى الله عليه وسلم . . .

وحق لهذا السلف الصالح أن يلتمس للقراءة معنى غير قراءة الحروف والكلمات . . . ولكن لماذا لم يدخلوا فى تقديرهم معنى أوسع من معانى التلاوة والاستظهار ؟ . . . لماذا لم يدخلوا فى تقديرهم أن تلك نبوة يودعها الله سبحانه صدر نبيه ، ويقرّ أسرارها فى قلبه الشريف . والنبوات والوحي وما إليهما أمور ليست من طبيعة عالمنا هذا الأرضى ؟ وأن المقرر أن مرد إدراك هذه الأمور هو لقانة القلب ، وهى أرقى وسائل الإدراك فى الإنسان ، إذ تحصل له من المعانى والحقائق والأسرار والصفات فى أقل من لمح البصر بغير حروف ورموز ما تضيق عنه المجلدات الضخمة ، ولا تتسع لتحصيله الشهور والأعوام .

ولقانة القلب نور منتشر فيه ، وحساسية مرهفة يتجاوب بها مع كل شيء ؛ فلا يكاد حس صاحبها يقع على شيء حتى يشعر كأنه ألقى إليه بأسراره ؛ فإذا الوجود كله أمامه كتاب منشور يقرأ فى مشاهدته ما لا يقرأ المطموسون ذوو الحجاب .

ولقد جاء القرآن الكريم ينبه إلى ما على القلوب من أقفال وأغلفة وأغطية ، وما ينتابها من صمم وعمى وبلادة تجثم على حسنها ، جاء ينبه إلى ذلك فيما لا يرى له مثيلاً في كتاب سماوى أو غير سماوى ، وما يريد بذلك إلا تحطيم تلك الأغلاق والأقفال ، وتمزيق تلك الحجب والأغطية ؛ حتى تزول الغفلة الجائئة على مواهب إدراكنا العالى ؛ فتزول بزوالها عن القلوب أمية هي شر من أمية العقول فتغدو سميعة بصيرة مدركة ملهمة تقرأ على صفحة كل شيء مالا يستقل العقل العادى وحده بإدراكه .

وإنك لترى فى مثل قوله سبحانه : « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » أنه يشير إلى تلك الأمية القلبية التى تجعل صاحبها يعيش تحت آيات ناطقة بصفات الحق دون أن يعيرها شيئا من التفاته ؛ لأنه لا يحس ولا يبصر ولا يفهم من حقيقة ما يرى شيئا !!

ولقد يكون أشمل من هذا قوله سبحانه : « وكأى من آية فى السموات والأرض يمدون عليها وهم عنها معرضون » فليس هذا المطموس المحجوب غائبا عن آيات السماء وحدها بل هو غائب كذلك عما يلمسه بحسسه ، ويتفاعل معه بنفسه ، ويمر عليه بقدمه من آيات هذه الأرض ، وإن واحدة منها فضلا عن سائر الجديرة — لو تأمل — أن تقدح فى قلبه من نور المعرفة والفهم ما يجعله يعكف الدهر على تسييح خالقها المقتدر العظيم ، ثم يرى أن ذلك قليل فى حقه سبحانه . . . ولكن صاحبنا يمر بها وهو ينظر إليها بعين راقدة ، ويشاهدها وكأنه غير مشاهد ، فهو والهيمة العجاء سيان صدق عليه ما وصفه الله سبحانه به : « أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » .

فنحن بإزاء أمية غليظة تطمس على سمع القلب وبصره ؛ فلا يرى الكائنات حوله إلا صحفا غفلامبهمة ، وشخوصا فارغة مستعجمة لا توحى بشيء ، ولا تعرب عن معنى . . . وحسبك من شر هذه الأمية أنها لا تدرك ما هو من قبيل البدهيات !!

أليس من البدهيات أن لكل مصنوع صانعا ، ولكل مخلوق خالقا ؟ فهل استطاعت تلك الأمية أن توحى إلى صاحبها نسبة تلك الكائنات إلى موجدتها ، وتكشف له طابع الخالق على كل شيء حوله ؟

فذلك المرض — مرض الدهول عن البدهيات الأصلية — هو مظهر هذه الأمية ، أو هو نفسه تلك الأمية . والفتاح الذى تفتح به أقفالها . هو تأمل المرء فيما حوله ؛ فإذا رأى شيئا رأى معه نسبته إلى موجدته ، وقرأ على صفحته طابع الخالق الذى يذكره بالخالق جل ثناؤه ، وإلى هذا التأمل والاعتبار يشير قوله سبحانه : « أفلم يسيرا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

فإذا انكشفت ظلمات تلك العجمة عن القلب استطاع أن يقرأ في كل شيء — بعد صفة الخالقية — الكثير من صفات الله تبارك وتعالى . . يقرأ قدرته ، وعلمه ، وحكمته ، وهيمنته ، وكرمه ، وفضله ، وافتقار الناس إليه ، واستغناؤه عن كل شيء ، وقيامه على الكائنات بمسكها أن تزول ويضطربها في نواميسه . لا تأخذه سنة ولا نوم وهو العلي العظيم . . . يستطيع أن يقرأ ذلك وسواء من صفات الله المتجلية في كل ما خلق .

وصفات الله سبحانه هي مصابيح القلوب ، لأنها صفات الحق فإذا سطعت على قلب ما وصلته بربه وهدته سبله إليه فلا يضل ولا يشقى . . وهذا الكلام يفضى بنا إلى أبواب من المعارف ، وآفاق من الحقائق لا مجال هنا لبسط القول فيها . ويكفي أن نشير إلى أن صاحب هذا القلب الموهوب يستمد من فطرته ما لا يستمد من بطون الكتب والمجلدات؛ فما استبهم عليه أمر ، وأعوزه رأى سديد إلا امتد إليه شعاع من أفق غيبي يسطع عليه بالطمأنينة والتوجيه الهادي إلى الصواب . . ولن تجد أصول العمران الحق ، وقواعد النظم الفاضلة ، وحقوق الأفراد والجماعات الأصيلة ، لن تجد ذلك سافرا مشرقا بل بارزا متوهجا إلا في فطر هؤلاء الذين استقرت أسرار صفات الله في خفايا نفوسهم ، فكانت لهم مدد كل خير وهداية .

وتلك منزلة من العلم لا يتوقف بلوغها على التلقي من معلمى المدارس أو أساتذة الجامعات ، بل سبيلها أن يقرأ القلب اللقن السليم في الكتاب المنشور الذى يستطيع أن يقرأه العالم والجاهل ، والأبى وغير الأبى : كتاب الوجود الذى إحدى دفتيه السماء والأخرى الأرض ، وصفحاته الكائنات ، وسطوره ما فى تلك الكائنات من إحياء ودلائل على الله سبحانه ؛ فمن قرأ فقد استدرج أصول العلم والهدى بين جنبيه ، لا باسم معلم من الناس ؛ ولكن باسم الله الذى خلق كل شيء ، ومن لم يقرأ فلن يكون فى قلبه إثارة من ذلك النور الهادي ، والعلم الحق ؛ ولو قضى فى الجامعات ما قضى من سنين ، ونال من إجازاتها العلمية ما نال ، وهذا هو فارق ما بين أمية القلب وأميه القراءة والكتابة ، وهو الذى يبدو فيما يبدو من معانى قوله سبحانه : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . . » فإننا لا نحسب أن الله أراد بها قراءة الحروف والرموز ، ولا أنه أراد معنى التلاوة لحسب ؛ بل أراد أن يرشد إلى أوسع آفاق القراءة ، ويثبت فى قلب رسوله سرها المعين عليها حتى لا يكون فى الناس من هو مثله أو أقرأ منه آيات الله ، أو حتى لا تكون فطرته الموهوبة هى وحدها مدد قراءته لجاء الوحي

من لدنه سبحانه بسر يظهر سر الفطرة على استكناه ما تقرأ إلى ما أُكرم به من أسرار النبوة ، وعلم الرسالة صلى الله عليه وسلم .

وإنك لترى ما أمد به عليه السلام من طاقات القراءة فيما أثر عنه من ذكر الله سبحانه على كل حال ، فقد كانت تطالعه دلائل قدرته ، وآثار رحمته من خلال كل شيء ، وكانت تلك الدلائل والآثار تحدث في نفسه من صيغ الذكر ما يتسق وإياها ؛ فكسوف الشمس آية من آيات الله وله حياها ذكر خاص ، وكسوف القمر ، ونزول المطر ، وإقبال الريح لا يرى فيها قلبه وعقله إلا تدبير الخالق سبحانه فلا يكون له من رجوع إلا صيغة ذكر تناسب المقام ، وتعطر الأفق ، وتحيي موات القلوب .

وإذا دخل السوق ، أو أقبل على مدينة ، أو خرج منها ، أو مضى إلى سفر ، أو عاد منه ، أو أوى إلى فراشه ، أو قلب فيه ، أو استيقظ من نومه ، أو لبس ثوبه ، أو رفع الماء إلى فيه ، أو قرب إليه طعامه ، أو كان في غير ذلك ؛ كان له في كل حال مشاهد لفضل الله يجيش بها قلبه ، ويهتز لها وجدانه ، ويترجمها لسانه بما يلائمها من صيغ الذكر .

ذلك الضرب الخطير من القراءة القائم على لقانة القلب لا نستطيع أن نتغله ونحن نقرأ قصة نزول الوحي بقوله سبحانه : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . . . » قال الأستاذ الشيخ محمد عبده في تفسير جزء عم : (فكأن الله يقول : كن قارئاً بقدرتي وإرادتي . . . وإنما عبر بالاسم « اسم ربك » لأنه دال على ما تعرف به الذات . . . وخلقُ القراءة يلفتك إلى الذات وصفاتها جميعاً ؛ لأن القراءة علم في نفس حية فهي تخطر ببالك من الله وجوده وعلمه وقدرته وإرادته)

ومهما تحدثنا عن جلال شأن هذه القراءة فلن نبلغ من تجلية حقيقتها شيئاً ، ويكفي أنها ترشح صاحبها لمقام النبوة والرسالة دون حاجة منه إلى قراءة الرموز والمصطلحات ، فإن لم تكن نبوة جاز أن ترشحه لمقام الهداية والإرشاد والإصلاح ، وكان إذعان الناس له قائماً على ما عرفوا لديه من الحق لا ما عرفوا له من علم محفوظ أو قول منقول .

وهل يكون لأحد من الناس حجة على الله بعد أن أرسل من أرسل من الرسل ، وبعد أن نشر أمام أبصارهم وبصائرهم شواهد قدرته ، ودلائل علمه وحكمته وإرادته ، يقرؤها كل مكلف في سهولة ويسر ، ويحصل من عبرها ونورها ما به صلاح أمره مع الله والناس ، وفوزه بالنجاة في الدنيا والآخرة ؟

في ظلال القرآن

للاستاذ سيد قطب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«الْم . . . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ . هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِالْغَيْبِ ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ، وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . . . أُولَئِكَ عَلَى
هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . خَتَمَ
اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَاهُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ
اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ
فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : لَا تُفْسِدُوا
فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا : إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ، وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ .
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا : أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ
السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا : آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا
إِلَى شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ،
وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ . . . أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى ، فَمَا
رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ .

في هذه الكلمات القلائل والأسطر المعدودات ترسم ثلاث صور ، لثلاثة أنماط من النفوس ، كل نمط منها نموذج حتى لمجموعات ضخمة من البشر . نموذج أصيل عميق ، متكرر في كل زمان ومكان ؛ حتى لا تكاد البشرية كلها — في جميع أعصارها وأقطارها — تخرج عن تلك الأنماط الثلاثة . . .

وفي هذه الكلمات القلائل والأسطر المعدودات ، ترسم هذه الصور واضحة كاملة ، نابضة بالحياة ، دقيقة السمات ، مميزة الصفات . لا يبلغ الوصف المطول ، والإطناب المفصل شيئا وراء هذه اللمسات السريعة المبينة ، الجميلة النسق ، الموسيقية الإيقاع .

ولقد بدأت السورة بتلك الحروف الثلاثة : « ألف . لام . ميم » بوصفها مبتدأ خبره : « ذلك الكتاب لاريب فيه » فمن نوع هذه الحروف ومن جنسها يتألف ذلك الكتاب ، ومن هذه الأصوات المألوفة يتكون . . . ولكنه مع هذا نسيج وحده ؛ وذلك هو الإبداع ، وذلك هو الإعجاز . وذلك مثل صنع الله في كل شيء وضع من دون الله . . . إن هذه التربة الأرضية مؤلفة من ذرات معلومة الصفات ، فإذا أخذ الإنسان هذه الذرات ، فقصارى ما يصوغه منها لبنة أو آجرة ، أو آنية أو أسطوانة ، أو هيكل أو جهاز . كائنا في دقته ما يكون . . . ولكن الله المبدع يصوغ من تلك الذرات حياة . حياة نابضة خافقة ، تنطوي على ذلك السر الإلهي المعجز الذي لا يستطيعه بشر كائنا من كان . . . وهكذا القرآن حروف وكلمات . يصوغ منها البشر كلاما وأوزانا ، ويصوغ منها الله قرآنا وفرقانا . . . والفرق ما بين صنع البشر وضع الله من هذه الحروف والكلمات ، هو الفرق ما بين الجسم الحامد ، والروح النابض . . . « وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ »

ذلك الكتاب . . . هدى للمتقين . . . وهنا يأخذ في رسم الصورة الأولى . . . المتقين : « الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، وما رزقناهم ينفقون » . . . والتقوى شعور في الضمير ، تنبثق عنه صفات وأعمال وتصرفات . وتتوحد فيه المشاعر الباطنة والتصرفات الظاهرة . يتوحد فيه الإيمان بالغيب الذي لا تدركه الحواس ، ولا يحيط به الفكر ، ولكن تلمسه البداهة ، وتستشفه الروح ، وتطلع عليه البصيرة ، ويدركه الإنسان بكيانه كله في ومضة . وقد يعز عليه برهانه في مجال المنطق الجدلي ، لأن برهانه مستقر في كيان الإنسان كله ، متلبس بأعماق الضمير . يتوحد فيه الإيمان

بالغيب على هذا النحو بإقامة الصلاة عبادة لله ، وبالإتفاق شكراً على نعمته ، وبراً بخلقه ، وتضامناً بين عباده . . ويتوحد فيه الإيمان كذلك بالرسالة الإلهية كلها ، في جميع أطوارها وحلقاتها : « والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » . . . فهذه حقيقة الإسلام الأولى : الوحدة الكبرى . وحدة الخالق بلا شريك . وحدة الدين والغاية . وحدة الرسل والبشرية . وحدة الشعور والسلوك . وحدة الدنيا والآخرة : « وبالأخرة هم يوقنون » .

ومن خلال هذه اللامسات السريعة ، تنتفض الصورة الحية . صورة المتقين . إحدى الصور الثلاث التي ترسم في تلك الكلمات القلائل ، والأسطر المحدودات .

فأما الصورة الثانية فلك صورة الكافرين . . فإذا كان الكتاب بذاته هدى للمتقين . فالإنذار بالكتاب وعدم الإنذار سواء بالنسبة للكافرين . إن المنافذ المفتحة في أرواح المتقين . المفتحة للإيمان بالغيب والإيمان بالآخرة ، والإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى رسله جميعاً . . هذه المنافذ المفتحة كلها هناك ، مغلقة كلها هنا ، فيستوى الإنذار إذن وعدم الإنذار : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم » ختم عليها فلا حس ولا شعور : « وعلى أبصارهم غشاوة » فلا نور ولا بصيص من نور . . إنها صورة صلبة مظلمة جامدة ، ترسم من خلال الحركة الثابتة الجازمة . حركة الختم على القلوب والأسماع ، والتغشية على العيون والأبصار .

ثم تنتقل إلى الصورة الثالثة — أو النموذج الثالث — فماذا نرى :

إنها ليست في شفافية الصورة الأولى وسماحتها ، وليست في غلظ الصورة الثانية وصفاقتها . ولكنها تتلوى في الحس ، وتروغ من البصر ، وتغنى وتبين . وطابعها العام هو التلوى والخذاع ! إنها صورة المنافقين . .

إنهم « يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم » يقولون آمنا بالله وباليوم الآخر . . « وما هم بمؤمنين » إنما هم . « يخادعون الله والذين آمنوا » يظنون في أنفسهم الدهاء والذكاء . ولكن يا للسخرية التي تنصب عليهم ولما تكمل الآية ، ولما تكمل الصورة : « وما يخدعون إلا أنفسهم . . وما يشعرون » فذكاؤهم أو دهاؤهم ما يزيد على أن يخدعهم وأن يسمهم بالغفلة ! إنهم مخدوعون في ذات اللحظة التي يظنون أنهم فيها خادعون . إنهم لن يبلغوا أن يخدعوا الله ، الذي خلقهم ومعهم ذكاءهم أو دهاؤهم !

وإنهم لن يبلغوا أن يخدعوا المؤمنين والله معهم وناصرهم . . وما يزيدون على أن يخدعوا أنفسهم بوجههم أنهم خادعون الله ، وخادعون من آمنوا بالله « وما يشعرون » ! . . ولكن لماذا يحاولون هذه المحاولة . ولماذا يخادعون هذا الخداع ؟ . . « في قلوبهم مرض » في طبيعتهم آفة . في فطرتهم علة . . الاستقامة والوضوح والسلامة ليست فيهم . إنما هو المرض الذي يفسد الشعور ، ويفسد التصور ، ويفسد السلوك . وهذا ما يحيد بهم عن الطريق المستقيم ، والصدق القويم . فيصرفون ذكاهم أودهاهم في الاعوجاج والخداع والنفاق : « فزادهم الله مرضا » فالله قد جعل الإنسان قima على نفسه ، وكلفه اليقظة لمشاعره وسلوكه : « قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » والخداع والنفاق يزيدان القلوب مرضاً على مرض « ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » .

وهم لا يقفون عند حد الكذب والخداع ، إنما يضيفون إليهما الادعاء والسفاهة ، بلا حجة وبلا بينة : « وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض » لم يكتبوا بأن ينفوا عن أنفسهم الإفساد بل تجاوزوه إلى الادعاء : « قالوا : إنما نحن مصلحون » ! هكذا بلا بينة ولا برهان : « ألا إنهم هم المفسدون » ولكنهم لما فهم من التواء ومرض « لا يشعرون » ! « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس » الناس الأسوياء الفطرة ، المستقيمون الطبع ، السليمون الوجدان . . لم يكتبوا بالاعتذار عن مخالفتهم للناس ، ولكن توقحوا وسفهوا : « قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ » هكذا تبجحاً وبذاءة : « ألا إنهم هم السفهاء » ولكنهم لما فهم من التواء ومرض « لا يعلمون » !

وهم لا يقفون عند حد الكذب والخداع والسفاهة والادعاء . إنما يضيفون إليها الضعف واللؤم : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا » ضعفاً عن المواجهة ، وجبناً عن المصارحة « وإذا خلوا إلى شياطينهم » — من الجن أو الإنس فأمنوا — « قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون » وما ينتج المرض والالتواء إلا الضعف واللؤم على السواء . وبعض الناس يحسب اللؤم قوة ، وهو ضعف وخسة . فالقوى ليس لثماً ولا خسيساً ، ولا مرائياً ولا منافقاً . والقوى ليس دسائساً ولا مستهزئاً بالناس ، وليس غمازاً ولا لمازاً في الخفاء . . وما أضعف هؤلاء الذين يقولون إنهم مستهزئون : « الله يستهزئ بهم » وما أشقاهم بغفلتهم هذه عن عاقبة ما يفعلون فالله يعملهم ولا يعملهم : « ويمدهم في طغيانهم يعمهون » .

أولئك كانوا يملكون الهدى لو أرادوا . . ولكنهم « اشتروا الضلالة بالهدى »

وتركوا النور للظلام خفسروا الصفقة ، وخانهم التوفيق : « فماربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

والعلنا نلح أن الحيز الذي استغرقه رسم هذه الصورة الثالثة جاء أفسح وأوسع من الحيز الذي استغرقه رسم الصورة الأولى أو الثانية . .

ذلك أن كلا من الصورتين الأوليين فيه استقامة على نحو من الأنحاء ، وفيه بساطة على معنى من المعاني : الصورة الأولى صورة النفس الصافية المستقيمة في اتجاهها . والصورة الثانية صورة النفس المعتمة المستقيمة في اتجاهها . أما الصورة الثالثة فهي صورة النفس الملتوية المريضة المقلقلة . . وهي في حاجة إلى مزيد من اللسات ومزيد من الخطوط حتى تظهر وتبين .

وفي سبيل هذا الغرض يمضى القرآن الكريم يضرب حولها الأمثال التي تكشف عن طبيعة موقفها في الحياة ، ونظرتها إلى الأشياء ، وعلاقتها بالأحياء :

« مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ، وَتَرَكَهُمْ فِي ظِلْمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ . صُمُّوا بِكُمْ ، صُمُّوا بِكُمْ ، فَفَهْمٌ لَا يَرْجِعُونَ .. »

« أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظِلْمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ . وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ . يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ، كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ، وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ . إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

مثل هؤلاء الذين رأوا الهدى فاستجبوا عليه الضلالة « كمثل الذي استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون » .. لقد طلبوا النار واستوقدوها . فلما أضاء نورها ما حولهم . لم ينتفعوا هم به وهم طالبوه .. ذلك أنهم حادوا عنه وأهملوه ، والتووا عن أفقه وجانبوه . وإذا كانت الآذان والألسنة والأعين لتلقى الأصداء والأضواء ، والاتفاع بالهدى والوعظة .. فهي عندهم لا تؤدي وظيفتها ، ولا تقوم بما خلقت له .. فهم إذن « صم بكم عمى » لا يسمعون ولا ينظرون ولا يفقهون ..

« أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ هَاطِلٌ غَازِرٌ فِيهِ ظِلْمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ » كلما أضاء لهم البرق فرأوا ما حولهم مشوا فيه . وإذا أظلم عليهم وقفوا حائرين . وهم مفزعون

« يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت » ولو شاء الله لهم الموت لما تواروا . ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم . ولكنه يدعهم لهذه الحيرة يضطربون فيها . اضطرابهم بين الأهواء التي تعصف بنفوسهم ، والالتواء الذي يسلكون طرائقه مع الناس ومع أنفسهم . فلا يصلون إلى استقرار ، ولا يتوجهون في استقامة ، ولا يعرفون لهم هدفاً واضحاً ، ولا يبينون عن وجهة مستقيمة .

وفي هذه الحركة التي تتمشى في خيوط الصورة ولمساتها : من الصيب الهائل وما فيه من ظلمات ورعد وبرق . إلى الماشين على ضوء البرق وأصابعهم في آذانهم من الصواعق . إلى انقطاع البرق وتخيم الظلام ووقوفهم فيه خفاة لا يدرون أيان يذهبون . في هذه الحركة صورة مقابلة لحركة نفوسهم ، وتقلباتهم بين المؤمنين والشياطين . بين ما يقولونه باللسان وما يخفونه في الجنان . بين ما يعتقدونه في أنفسهم من الدهاء وما يطالبونه لأنفسهم من الاستعلاء ، وبين ما يرتكسون فيه من ظلام وما يفتنون إليه من بوار ... « ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » .

* * *

والآن بعد استعراض هذه الصور الثلاث نعود إلى الصورة الأولى . الصورة التي كتب الله لأهلها الفلاح : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » ... نعود إليها لتتملى خصائصها ومقوماتها من زاوية أخرى ، ولنرى مدى أصالتها في الحياة وكرامتها .

... المتقين ... « الذين يؤمنون بالغيب » ما قيعة هذه السمة في الحياة وما جدواها ؟ قيمتها هي صيانة الطاقة العقلية عن التبدد والتمزق فيما لم تخلق له ، ولم تعط القدرة عليه ، ولا يجدى أن تنفق فيه . . إن الطاقة العقلية موكلة بهذه الحياة الواقعة المحدودة ، تنظر فيها ، وتعمقها وتقصاها ، وتعمل وتنتج ، وتنمى الحياة وتجملها . . وفي هذا يجدى الجهد وتحقق الفائدة . فأما محاولة استجلاء الغيب ووزنه بموازين العقل المحدود الطاقة ، فهي ذاتها محاولة أن يكون الإنسان إلهاً ، وأن يصير الفاني خالداً ، والمخلوق أزلياً . محاولة الجزء أن يدرك الكل . محاولة الفرد الذي يولد اليوم ويموت غداً ، أن يعرف ما يعرفه الخالق الذي لا بداية له ولا نهاية لوجوده . . وهي محاولة فاشلة أولاً ، ومحاولة عابثة أخيراً . فاشلة لأنها فوق الطاقة . وعابثة لأنها تبدد الطاقة . . ومتى سئم العقل البشرى بالبدئية الأولى ، وهي أنه جزئى ، محدود بالزمان والمكان ، مقيد بالحس والتجربة ، والتصور والقياس الناشئين من

الحس والتجربة .. متى سلم بهذه البديهية الأولى لزمه — إحتراما لمنطقه ذاته — أن يسلم بأن إحاطته بالكل مستحيلة ، وأن إدراكه للمطلق مستحيل ، وأن عليه أن يكل الغيب لصاحب الغيب ، وألا ينفيه لمجرد أن وسائله هو لا تحيط به .. وقيمة هذا التسليم هي أن يعمل العقل في الحقل الذي يدركه وينتج فيه . وألا يغتر بنفسه فيجعل من ذاته إلها ، ومن تصورات دينا ، ومن مقولاته شريعة .. لأنه عرضة للخطأ والذلال ، ما لم يستند إلى العقل الأكبر ، إلى الله ذي الجلال .

« ويقيمون الصلاة » .. ما قيمة هذه السمة في الحياة ؟ قيمتها التوجه إلى الخالق دون المخلوقين . التوجه إلى القوة المطلقة بغير حدود . قيمتها الاعتزاز بالله على العبيد . قيمتها تذكر هذا الخالق القادر بين آونة وأخرى ، والرجوع إليه بين فترة وفترة . قيمتها أن يحسن الفرد الزائل الفاني صلته بالله الخالد الباقي .. فإذا لحياته غاية ، وإذا لضعفه قوة ، وإذا لحدوده امتداد .

« ومما رزقناهم ينفقون » .. ما قيمة هذه السمة في الحياة ؟ قيمتها الاعتراف بنعمة الرزق ، والبر بضعاف الخلق ، والتضامن بين عباد الخالق . قيمتها الشعور بالآصرة الإنسانية وبالأخوة البشرية . قيمتها تطهير النفس من الشح ، وتركيتها بالبر ، قيمتها أن ترد الحياة مجال تعاون لا معترك تطاحن ، وأن تؤمن العاجز والضعيف والقاصر . وتشعرهم أنهم يعيشون بين قلوب ووجوه ونفوس ، لا بين مخالب وأظفار ونيوب .. !

« والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » .. وهذه ما قيمتها كذلك ؟ قيمتها هي الشعور بوحدة البشرية ووحدة دينها ووحدة رسلها . قيمتها هي تنقية الروح من العصبية الدميعة ضد الديانات وأصحاب الديانات . قيمتها هي الاطمئنان إلى رعاية الله للبشرية على تطاول عهودها وأحقابها . قيمتها هي الاعتزاز بالهدى الذي تنقلب الأيام والأزمان ، وهو ثابت مطرد ، كالنجم الهادي في خضم الظلمات .

« وبالأخرة هم يوقنون » وهذه خاتمة السمات . الخاتمة التي تربط الدنيا بالأخرة ، والمبدأ بالمصير ، والعمل بالجزاء . والتي تشعر الإنسان أنه ليس لثقى مهمل . وأنه لم يخلق عبثا . وأن العدالة المطلقة في انتظاره ، تسكل له جزاءه ، وتحقق له ما فاته منه في الدار الأولى . ليطمئن قلبه ، وتستقر بلابله ، وينفث إلى عمله الصالح ، وإلى عدل الله ورحمته في نهاية المطاف ..

ثم تتضام هذه السمات وتتلاقى ، لتؤلف كلها بخطوطها الظاهرة ، وخيوطها الخفية

تلك الصورة المستقيمة النقية : صورة المتقين . . الذين يؤمنون بالغيب ويقومون الصلاة
ومما رزقناهم ينفقون . . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون . .

وعند ما يتم استعراض تلك الصور الثلاث من صور الناس ، يرتد السياق في القرآن
نداء للناس كافة ، وأمرًا للبشرية جمعاء ، أن تختار الصورة الكريمة المستقيمة . الصورة
النقية العاملة النافعة ، الصورة المهتدية المفلحة الناجحة : صورة المتقين :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »
لعلكم تصيرون إلى هذه الصورة المختارة من صور البشرية . صورة العابدين لله
المتقين الله . .

« الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاشًا ، وَالسَّمَاءَ بَنَاءً ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَأَخْرَجَ بِهِ
مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » . .

وفي هذا النداء تبرز كليتان من كليات الفكرة الإسلامية عن الكون والحياة
والإنسان : وحدة الخالق ووحدة الخليفة . « الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » :
وحدة الكون وتناسق وحدانه وصداقته للحياة والإنسان « الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ
فَرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً » ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ » فهذا
الكون : أرضه مخلوقة لهذا الإنسان ومن سمائه ينزل الماء الذي تخرج به الثمرات رزقا
لبنى الإنسان . والله خالقه خالق الأولين والآخرين ، ورب العالمين أجمعين : « فَلَا
تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

ذلك البرهان الكوني المحسوس ، يتبعه في السياق برهان آخر عقلي ، مصحوب
بالتحدى ، منظور فيه إلى افتتاح السورة بتلك الحروف : « أَلَمْ : ذلك الكتاب
لا ريب فيه » ليتقصى في النفوس مظان الريب ومواقع الشكوك :

« وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ، وَادْعُوا
شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »

فذلك الكتاب المعجز مصوغ من تلك الحروف التي في أيديكم . فإن كان بشر
مستطيعا أن يصوغ منها مثله ، فدونه فليفعل :

« فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا — وَلَنْ تَفْعَلُوا — فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ
أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » .

« وقودها الناس والحجارة » فم هذا الجمع بين الناس والحجارة في هذه الصورة المفزعة الرهيبة ؟ إن الذى لا ينفى إلى الحق بعد البرهان الكونى المحسوس ، والبرهان العقلى البارز ، والتجدي والعجز الواقع .. إن الذى لا ينفى إلى الحق بعد هذا كله حجب من الحجر ، وإن بدا في صورة إنسان من الناس ! فهو والحجر سواء في التحجر وفقدان الحساسية ، وجمود الشعور . إنهما وقود النار : الناس من هذا الطراز والأحجار : الأحجار التى لم يتعارف الناس على أن تكون وقوداً . ولكنها تجيء هنا في الصورة لتظهر ضراوة هذه النار ، التى تذيب الحجارة ، حتى لتصبح لها وقوداً .

وفي مقابل هذه الصورة المفزعة . صورة النار التى وقودها الحجارة . في مقابل هذا المشهد يعرض السياق مشهداً آخر . مشهد النعيم الذى ينتظر المؤمنين .

« وبشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا : هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

ومن شاء فليختر . أجل لتكن الخيرة بين النار التى وقودها الناس والحجارة .. والجنة التى تجرى من تحتها الأنهار . والى يرزق فيها المؤمنون بلاكد ولا نصب . « كلما رُزِقوا منها من ثمرة رزقا قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابهًا » متشابهًا في المظهر ، مختلفًا في المذاق . كى تكون المفاجأة بمخبره بعد تشابه مظهره ، أقوى أثرًا ، وأعمق وقعا ، وأدعى للفرحة به وللذة جميعاً .

إن هذا التشابه في الشكل مع التنوع في المزية سمة واضحة في صنع البارئ تعالى .. الناس كلهم ناس من ناحية قاعدة التكوين : رأس وجسم وأطراف . لحم ودم وعظام وأعصاب . عيان وأذنان وفم ولسان . ذرات حية من نوع الذرات الحية . تركيب متشابه في الشكل والمادة .. ولكن أين غاية المدى في السمات والمزايا ؟ إن فارق ما بين إنسان وإنسان — على هذا التشابه — ليلغ أحياناً أبعد مما بين الأرض والسماء من آماذ .. وهكذا يبدو التنوع في صنع البارئ هائلاً يدير الرؤوس : التنوع في الأنواع والأجناس ، والتنوع في الأشكال والسمات ، والتنوع في المزايا والصفات .. وكله . كله . مردّه إلى الذرة الواحدة المتشابهة التركيب والتكوين ..

ألا جلّت قدرة الله ، ألا علت حكمة الله ! . ألا سبحانك اللهم سبحانك . لك الأمر بيدك الخير .. إنك على كل شيء قدير ..

مقارنة بين أسلوب القرآن والحديث

لفضيلة الأستاذ مصطفى الزرقا

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق السورية

الفرق عظيم جداً بين أسلوب الحديث النبوي وأسلوب القرآن في طريقة البيان العربي ، فبينهما شقة واسعة لا يشبه أحدهما الآخر لدى أهل البصر باللغة وأساليبها وبالمأثور المؤلف من بيانها قديمه وحديثه .

وإن هذا التفاوت الكبير في الأسلوبين إذا أنعم الإنسان فيه النظر — وكان ذا ملكة بيانية — لا يترك لديه مجالاً للشك والريبة في أن الحديث النبوي والقرآن صادران عن مصدرين مختلفين .

فالحديث النبوي كما سنرى من نصوصه التي سنعرض أمثلتها قريباً جاء كله على الأسلوب المعتاد للعرب في التخاطب ، تتجلى فيه لغة المحادثة ، والتفهم والتعليم والخطابة في صورها ومناهجها المألوفة لدى العرب ، ويعالج جزئيات القضايا والمسائل ويحجب عنها ، ويحاور ويناقش كما يتخاطب سائر الناس بعضهم مع بعض . ولكنه يتميز عن الكلام العربي المؤلف بأن فيه لغة متقاة غير نابية ، وأن فيه إحكاماً في التعبير وجمعاً للمعاني المقصودة بأوجز طريق وأقربه دون حشو ؛ مما يستحق به التسمية بجوامع الكلم . فهو كلام عربي من الطراز المعتاد المؤلف ولكنه على درجة عليا من أساليب البلغاء المعهودة .

أما أسلوب القرآن فهو أسلوب مبتكر لا يجد الناظر فيه والسماع شبيهاً له فيما يعرف من كلام العرب وأساليبهم . يعالج الكليات ، ويفرض الأحكام ، ويضرب الأمثال ، ويوجه المواعظ ، في عموم لا تشبه العمومات المألوفة ، وخطاب فيه من التجريد ما يجعل له طابعاً خاصاً منقطع النظير .

فلو أخذ قانون تشريعي وقورن بأحكام القرآن الآمرة الناهية لما كان له به شبه في الأسلوب أصلاً ولو اتحد موضوع الأمر والنهي فيهما ، وإذا أخذ كتاب تاريخ وقورن بما في القرآن من قصص تاريخي لما وجد أيضاً بينهما شبه في الأسلوب ولو أنهما عالجاً قصة واحدة .

ولو أخذ كذلك كتاب مواعظ وأخلاق وقورن بما في القرآن من مواعظ لما كان بينهما أيضاً شبه أصلاً في الأسلوب ولو اتحد الموضوع . وهكذا لا يمكن أن يجد

الباحث كلاماً أو كتاباً في اللغة العربية يمكن أن يتحد أو يتشابه أسلوبه مع أسلوب القرآن . فهو صورة جديدة مبتكرة في البيان العربي جارية على قواعد العرب وطريقتهم في التركيب ، ولكنه يختلف عنها كل الاختلاف فيما نسميه بالأسلوب ، بحيث أنك لو خلطت سورة أو جملة آيات بمجموعة أخرى من الكلام العربي لاستطعت أن تميزها منها بسهولة .

أما الحديث النبوي فكثيراً ما يشبه أسلوبه أسلوب سائر الأقوال والحكم المأثورة إذا كانت بليغة ؛ ولذلك كثيراً ما توضع الأحاديث كذباً على لسان رسول الله عليه السلام فتشتبه من حيث لفظها ومعناها على السامع ، ولا يمكن البحث عن أصالتها وصحتها إلا عن طريق السند .

ومن المسلم به لدى أهل البصر الأدبي أنه من المتعذر على الشخص الواحد أن يكون له أسلوبان في بيانه يختلفان اختلافاً كبيراً أحدهما عن الآخر ويجرى كل منهما في ذاته على نسق متشابه لا يختلف في درجة بلاغته وطريقته ويختلف عن أسلوبه الآخر اختلافاً كلياً ؛ فهذا مما لم يُعهد في التاريخ الأدبي المعروف . بل إذا أراد أحد الكتاب أن يخرج عن الأسلوب الذي هو متميز فيه إلى أسلوب آخر فلا بد أن يظهر فيه التكلف ، ولا يمكن أن يتقن ذلك الأسلوب الثاني ، فما بالك بهذا التفاوت الكلي بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث ؟

فمن يتوهم من الأجانب أن القرآن هو مجموعة من تأليف النبي عليه السلام إلى جانب أحاديثه إنما منشأ وهمهم هذا عدم إمكانهم أن يتذوقوا الفارق العظيم بين الأسلوبين لكي يعرفوا إمكان وحدة المصدر فيهما أو اختلافه .

وهذا الاختلاف الواسع المدى بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوي والذي يوجب الحكم باختلاف مصدرهما يتجلى واضحاً لكل ذي إدراك في الأسلوب العربي وذوق في لسان العرب من المقارنة بالأمثلة الواردة منهما في موضوع واحد :

فلو أننا أخذنا من القرآن آيات ومن الحديث النبوي أحاديث في موضوع تلك الآيات نفسه لرأينا بهذه المقارنة من اختلاف الأسلوبين الحاكم باختلاف المصدر ما فيه البرهان الكافي .

١ — فلنأخذ مثلاً قول القرآن العظيم في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

ولننظر مقابله في نفس المعنى قول النبي عليه الصلاة والسلام :

« لتأمرنّ بالمعروف وتنهونّ عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » .

٢ — ولنأخذ مثلاً في موضوع الإخاء في الدين قول القرآن العظيم في سورة الحجرات :

« إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

ولننظر مقابله في نفس المعنى قول النبي عليه السلام :

« المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلّمه » .

ومعنى (يسلّمه) أن يتركه لعدوه فلا يحميه ولا يمنعه منه .

٣ — ولنأخذ أيضاً قول القرآن العظيم في موضوع الإخاء الإنساني العام والتآلف والتعارف والتفاضل بالتقوى والصلاح لا بالعرق والنسب ولا بالمال والنسب :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » .

ولننظر في نفس المعنى أقوال النبي عليه السلام التالية :

« أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى » .

« من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .

« المؤمن آلف مألوف ولا خير فيمن لا يآلف ولا يؤلف » .

٤ — ولنأخذ أيضاً قول القرآن العظيم في ارتباط صلاح الحياة الاجتماعية بنظام العقوبة على الجنايات :

« ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تعقلون » .

ولننظر في مقابله قول النبي عليه السلام .

« إقامة حدّ بأرض خير لأهلها من مطر أربعين صباحاً » .

وهكذا إذا تقصينا الموضوعات والمعاني التي وردت في القرآن وفي الحديث معاً نجد

بينهما في الأسلوب العربي هذا البون الكبير الذي يجزم معه كل ذى بصر وإنصاف أن شخصاً لا يمكن أن يصدر عنه هذان الأسلوبان معاً ولكل منهما طابعه الخاص البعيد كل البعد عن الآخر وكل منهما في ذاته وفي جميع أمثله ونصوصه متشابه لا يختلف بل يجرى على غرار واحد فيحافظ على طريقته المتميزة وعلى اختلافه عن غيره ذلك الاختلاف الكبير .

وإنه ليتجلى من هذه الأمثلة المقارنة ومن نظائرها ما أشرنا إليه آنفاً من أن أسلوب الحديث النبوي هو أسلوب التخاطب العادي المؤلف بين العرب في بيانهم وأحاديثهم ومحاوراتهم وحكمهم وأحكامهم ووصاياهم ونصائحهم ، لا يخرج عن هذا السنن المؤلف بينهم ، وإما يمتاز بأنه من جوامع الكلم ومن حكيم البيان وفصيح اللغة وبخلوه من الحشو ومن الصور الخطائية العاطفية التي تعتمد على العاطفة وحدها دون العقل . وتعبير آخر أنه يتجلى في أسلوب الحديث النبوي العقل الناطق بأبلغ وأوجز أسلوب معتاد . أما أسلوب القرآن فيتجلى فيه الابتكار الذي لم يعهد له مثيل ، ولا يشبهه شيء من كلام العرب في طرائف بيانه ومناهج خطاه .

هذا ، وإذا كان كل أسلوب يأنى يشف عن ذاتية وشخصية خاصة في التكلم ، فإن من وراء ذلك التفاوت العظيم في أسلوب القرآن والحديث النبوي من الوجهة البيانية يستشف القارئ والسامع تفاوتاً أعظم منه في تلك الذاتية التي ينبئ عنها الكلام . فعند ما تسمع القرآن تتجلى لك من خلال آياته ذاتية تتكلم من جو علو وقوة ، وسطوة وقدرة ، وحكمة ورحمة . وهذه الذاتية القوية العظمية التي تتجلى من وراء أسلوب القرآن لا تضعف حتى في المواطن التي تعبر فيها عن الرحمة ، وإن قوتها واحدة في جميع سوره وآياته ، فهي دائماً ذاتية جبارة قادرة منتقمة عادلة حكيمة رحيمة ، آخذة بزمامين من الترغيب والترهيب ، ذات سلطان مطلق . فانظر وتصورها مثلاً من خلال نحو الآيات التالية .

« الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض »

« الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » .

« وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها

تدميراً » .

« وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » .

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

« هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » .

أما الحديث النبوى فإنك تستشعر من وراء أسلوبه بشخصية بشرية ، وذاتية يعترها الضعف والقوة ، ولكن قوتها من لون آخر : ففيها ضعف الذات العاجزة أمام الصعوبات القاهرة تارة ، وفيها قوة الثقة بالحق تارة أخرى . فكثيراً ما تشعر من أسلوب الحديث النبوى بشخصية تعز بهذا الضعف الدانى أمام الله إلى جانب اعتزازها بقوة الأمانة والثقة بالحق . ففيها ضراعة البشر وتواضع الزهاد ، إلى جانب حكمة الحكماء وقوة المبلغين الأماناء .

فانظر وتصور هذه الشخصية فى لون قوتها من خلال قول الرسول عليه السلام لعنه أبى طالب : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

وتصورها فى شعورها بالضعف الدانى من خلال الأدعية الماثورة عن النبى عليه الصلاة والسلام فى مناجاة ربه ، كقوله بعد ما خرج لدعوة ثقيف وعاد بالأذى والخذلان « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس . يا أرحم الراحمين إلى من تكلفى ؟ إلى عدو يتجهمنى أم إلى قريب ملكته أمرى . أعوذ بنور وجهك الكريم الذى أضاءت له السموات والأرض ، وأشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تحل على غضبك ، أو تنزل على سخطك . لك العقبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك »

وكقوله : « اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى وتجمع بها شملى ، وتلم بها شعئى ، وترد بها الفتن عنى » .

وبعد فهذه مقارنة بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوى إنما نقصد بها الموازنة بين الأسلوبين من الناحية العربية البيانية فقط ، وما توحى به من اختلاف الذاتية والشخصية مما ينبئ باختلاف المصدر ، دون النظر إلى النواحي التى يذكرها العلماء والأدباء الباحثون فى وجوه إعجاز القرآن المتعددة ، لأنها تخرج عن موضوعنا هنا .

السنة

(٤)

هل حبس عمر أحداً من الصحابة لإكثاره الحديث ؟

المشهور المتروك على بعض الألسنة أن عمر رضى الله عنه حبس ثلاثة من كبار الصحابة لإكثارهم الحديث وهم : ابن مسعود وأبو الدرداء وأبو ذر ، وقد حاولت أن أعثر على هذه الرواية في كتاب معتبر فلم أجدها ، ودلائل الوضع عليها ظاهرة ؛ فإن ابن مسعود كان من كبار الصحابة وأقدمهم إسلاماً ، وله مقام كبير في نفس عمر رضى الله عنه . حتى أنه حين أرسله إلى العراق امتن عليهم بإرساله إذ قال لهم : « ولقد آثرتكم بعبد الله على نفسي » وكان مقامه خلال خلافة عمر في العراق ، وإنما أرسله إليها ليعلم أهلها الدين والأحكام . ومن الأحكام ما تؤخذ من السنة فكيف يحبس عمر لتحديثه وهو إنما أرسله لهذا الغرض ؟ أما أبو ذر وأبو الدرداء فلا يعلم عنهما كثير حديث . نعم كان أبو الدرداء معلم المسلمين بالشام ، كما كان ابن مسعود في العراق ، والغرابية في حبس عمر لابن مسعود تأتي أيضاً في أبي الدرداء فكيف يحبس وهو معلمهم ومفقههم في دينهم ؟ وهل كان عمر يريد منه ومن ابن مسعود أن يكتما بعض الحديث فيكتما بعض أحكام الدين عن المسلمين . وأما أبو ذر فهما نقل عنه من حديث فهو لم يبلغ جزءاً مما بلغه أبو هريرة فلماذا يحبس ولا يحبس أبا هريرة ؟ ولئن قيل إن أبا هريرة لم يكن يكثر الحديث في عهد عمر خوفاً منه . قلت لماذا لم يخفه أبو ذر كما خافه أبو هريرة ؟ والحاصل أن الذين عُرِفوا بكثرة الحديث من الصحابة كابن عباس وأبي هريرة وعائشة وجابر بن عبد الله وابن مسعود معهم لم يرو عن عمر أنه تعرض لهم بشيء ، بل روى أنه قال لأبي هريرة حين بدأ يكثر من الحديث أ كنت معنا حين كان النبي صلى الله عليه وسلم في مكان كذا ؟ قال نعم سمعته صلى الله عليه وسلم يقول : « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » فقال له عمر أما إذا ذكرت ذلك فاذهب فحدث . فكيف يعقل أن يترك أبا هريرة وهو أكثر الصحابة حديثاً على الإطلاق ثم يحبس مثل ابن مسعود وهو أقل من أبي هريرة حديثاً أو مثل أبي الدرداء وأبي ذر وهما لم يعرفا بين الصحابة بكثرة الحديث مطلقاً ؟ .

لقد لبثت كثيراً أشك في هذه الرواية وأقبلها على جميع وجوه النظر حتى قرأت في كتاب الأحكام لابن حزم ما يلي : « وروى عن عمر أنه حبس ابن مسعود من أجل

الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبا الدرداء ، وأبا ذر . وطعن في الرواية بالانقطاع لأن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف راويه عن عمر لم يسمع منه وقد وافقه البيهقي على هذا ، ولكن يعقوب بن شيبة والطبري وغيرهما أثبتوا سماعه من عمر . والظاهر أنه لم يسمع منه فإنه مات سنة ٩٩ أو ٩٥ وعمره (٧٥ سنة) فيكون قد ولد سنة ٢٠ من الهجرة في أواخر خلافة عمر فلا يتصور سماعه منه في مثل ذلك السن . وعلى ذلك فلا تكون الرواية حجة ولا يؤخذ بها . . . ثم قال ابن حزم إن الخبر في نفسه ظاهر الكذب والتوليد ، لأنه لا يخلو عن أن يكون اتهم الصحابة وفي هذا ما فيه ، أو يكون نهى عن نفس الحديث وعن تبليغ السنة ، وألزمهم كتمانها وجعلها وهذا خروج عن الإسلام . وقد أعاذ الله أمير المؤمنين من كل ذلك وهذا قول لا يقوله مسلم أصلاً ، ولئن كان حبسهم وهم غير متهمين فقد ظلمهم . فليختر المحتج لمذهبه الفاسد بمثل هذه الروايات الملعونة أى الطريقتين الخبيثتين شاء (١) اهـ »

هل كان الصحابة يشترطون لقبول الحديث شيئاً ؟

١ — روى الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ في ترجمة أبي بكر الصديق قال : كان أول من احتاط في قبول الأخبار ؛ فروى ابن شهاب عن قبيصة أن الجدة جاءت إلى أبي بكر تلتمس أن تورث ؛ قال ما أجد لك في كتاب الله شيئاً ، وما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لك شيئاً ، ثم سأل الناس فقام المغيرة فقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيها الثلث . فقال له هل معك أحد فشهد محمد بن سلمة بمثل ذلك فأنفذه لها أبو بكر .

٢ — وروى أيضاً عن الحريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد أن أبا موسى سلم على عمر من وراء الباب ثلاثاً فلم يؤذن له ، فرجع ؛ فأرسل عمر في أثره فقال لم رجعت ؟ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سلم أحدكم ثلاثاً فلم يُجِبْ فليرجع » قال : لتأتيني على ذلك بيينة أو لأفعلن بك ، فجاءنا أبو موسى ممتقعاً لونه ونحن جلوس فقلنا ما شأنك فأخبرنا ، وقال فهل سمع أحد منكم فقلنا نعم كلنا سمعنا فأرسلوا معه رجلاً منهم فأخبره (٢) .

٣ — وروى أيضاً عن هشام عن أبيه عن المغيرة بن شعبة أن عمر استشارهم في املاص المرأة فقال المغيرة قضى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بغرة ، فقال له عمر إن كنت صادقاً فانت بواحد يعلم ذلك . قال فشهد محمد بن سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى به .

٤ — وروى أيضا عن أسماء بن الحكم الفزارى أنه سمع عليا رضى الله عنه يقول كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا نفعتني الله بما شاء أن ينفعني به ، وكان إذا حدثني غيره استحلقتة فإذا حلف صدقته ، وحدثني أبو بكر — وصدق أبو بكر — قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « مامن عبد يذنب ذنبا ثم يتوضأ ويصلى ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له » .

فهم بعض الباحثين من هذه الآثار أن خطبة أبي بكر وعمر في الحديث أن لا يقبل حديثا إلا ما رواه اثنان فأكثر وأن خطبة علي تحليف الراوى ، وانتقل هذا الفهم إلى كثير ممن كتب في تاريخ التشريع الإسلامى ، وتاريخ السنة في العصر الحديث ؛ فأصبح عندهم قضية مسلمة لا يذكرون غيرها . ومن ذهب إلى هذا أساتذتنا الأجلاء مؤلفو مذكرة تاريخ التشريع الإسلامى فقد ذكروا في باب شروط الأئمة للعمل بالحديث أن هذا كان شرط أبي بكر وعمر وعلى للعمل بالحديث .

والواقع أن بناء هذه القاعدة أو النظرية على تلك الآثار خطأ علمى ترده الآثار الأخرى التى تشهد بأن عمر أخذ بأحاديث لم يروها له إلا راو واحد ، وأن عليا قبل حديث بعض الصحابة دون أن يستحلفه ، وأن أبا بكر روى عنه مثل ذلك وإليك هذه الآثار .

١ — أخرج الشيخان من طريق ابن شهاب عن عبد الله بن عامر بن ربيعة أن عمر خرج إلى الشام فلما جاء « سرغ » بلغه أن الوباء قد وقع بالشام فأخبره عبد الرحمن بن عوف أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه » فرجع عمر من « سرغ » قال ابن شهاب وأخبرنا سالم بن عبد الله بن عمر أن عمر إنما انصرف بالناس من حديث عبد الرحمن بن عوف .

٢ — وروى أن عمر بن الخطاب كان يقول للدية للعاقلة ولا ترث المرأة من دية زوجها شيئا حتى أخبره الضحاك بن سفيان أن رسول الله كتب إليه أن يورث امرأة أشيم الضبابى من دية فرجع إليه عمر (١) .

٣ — وروى أيضا أن عمر قال أذكر الله امرأ سمع من النبي في الجنين شيئا ، فقام حمل بن مالك بن النابغة فقال كنت بين جارتين لى (يعنى ضربت إحداهما

(١) الرسالة للشافعى ٤٢٦ من الطبعة الحديثة ورواه أيضا احمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه ومالك .

الأخرى بمسطح فألقت جنيئاً ميتاً فقضى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بغرة (وهى العبد أو الأمة) فقال عمر لو لم أسمع فيه لقضينا بغيره (١) .

٤ — وروى أيضاً أن عمر ذكر المجوس فقال ما أدرى كيف أصنع في أمرهم فقال له عبد الرحمن بن عوف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب (٢) » .

٥ — وأخرج البيهقي عن هشام بن يحيى الخزومي أن رجلاً من ثقيف أتى عمر ابن الخطاب فسأله عن امرأة حاضت — وقد كانت زارت البيت — ألها أن تنفر قبل أن تطهر ؟ فقال لا . قال له الثقيفي : إن رسول الله أفتاني في مثل هذه المرأة بغير ما أفيت ، فقام إليه عمر فضربه بالدرة وهو يقول : لم تستفتوني في شيء أفتي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) ؟ .

٦ — وروى أن عمر رضى الله عنه قضى في الإبهام بخمس عشرة ، وفي التي تليها بعشر وفي الوسط بعشر ، وفي التي تلى الخنصر بتسع ، وفي الخنصر بست ؛ فلما روى له كتاب عمرو بن حزم الذى ذكر فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال وفي كل إصبع مما هنالك عشر من الإبل رجوع عن قوله وصار إليه . هكذا جاء في بعض كتب الأصول وفي فتح الملهم شرح صحيح مسلم لشيخ الإسلام شبير احمد العثماني الهندي (صفحة ٧) (٤) ، ولكن الذى يفهم من الرسالة أن الصحابة اطلعوا على هذا الكتاب عند آل عمرو بن حزم بعد وفاة عمر فعملوا به وتركوا قول عمر .

٧ — وعمل عمر أيضاً بنجر سعد بن أبى وقاص في المسح على الخفين (٥) .

٨ — وأراد عمر رجم مجنونة حتى أعلم بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « رفع القلم عن ثلاثة فأمر أن لا ترجم (٦) » .

هذه الآثار مستفيضة صحيحة رواها الأئمة الأثبات وفيها ما يدل دلالة لا تقبل الجدل أن عمر رضى الله عنه أخذ بحديث رواه صحابى واحد دون توقف أو تشكك ، وهى فى العدد أكثر من تلك التى روت أنه طلب راوياً آخر ولا تقل فى الصحة والثبوت عنها . ولما كان عمل الصحابة جميعاً على الاكتفاء بنجر صحابى واحد . كان لابد من تأويل

(٢) الرسالة ٤٣٠

(٢) الرسالة ٤٢٧

(٢) مفتاح الجنة للسيوطى ص ٣١

(٤) وذكر ذلك ابن حزم أيضاً فى الأحكام ١٣/٢

(٥) فتح الملهم ص ٧

(٦) الأحكام لابن حزم : ١٣/٢

ما روى عن عمر مخالفا لعمله في الروايات الأخرى ، ولعمل الصحابة الآخرين ، وبالرجوع إلى تلك الروايات نجد أن رواية المغيرة بن شعبة في الإملاص قد رويت من طريق حمل بن مالك أيضا ، وأن عمر قبل خبره من غير تردد . ولم يبق إلا رواية استئذان أبي موسى فلا بد من حملها على ما عرف عن عمر من الثبوت في رواية الأخبار وحمل الصحابة على ذلك ؛ فيكون عمر في قضية أبي موسى وفي قضية المغيرة — لو سلمنا أنه لا معارض لروايته — أراد أن يعطى الصحابة درسا في الثبوت في قبول الأخبار وروايتها ؛ فإذا كان مثل أبي موسى والمغيرة — وهما من هاهنا في جلالة قدرهما بين الصحابة — يطلب منهما عمر أن يأتياه براو آخر كان ممن دون أبي موسى والمغيرة من الصحابة وغيرهم من التابعين أحق بالثبوت ، وأجدر بالتروى في نقل الأخبار وروايتها . هذا هو الحمل الصحيح لما صنع عمر ويدل عليه قوله لأبي موسى : أما أني لم أتهمك لكنه الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي رواية أخرى أن أبا عاتبة فقال له : « إني أردت أن أثبت » . وهذا هو ما رآه الشافعي رحمه الله في الرسالة في صنع عمر حين طلب راويا آخر بعد أن ذكر الروايات الثابتة عنه أنه كان يقبل حديث صحابي واحد . قال رحمه الله : أما في خبر أبي موسى فإلى الاحتياط ؛ لأن أبا موسى ثقة أمين عنده . فإن قال قائل ما الدليل على ذلك قلنا ما رواه مالك بن أنس عن ربيعة عن غير واحد من علمائهم من حديث أبي موسى ، وأن عمر قال لأبي موسى أما أني لم أتهمك ولكني خشيت أن يقول الناس على رسول الله (١) .

هذا ما يتعلق بعمر رضى الله عنه أما موقف أبي بكر فلم يرو عنه أنه طلب راويا آخر إلا في تلك الحادثة (٢) ، وهذا لا يبرر القول بأن مذهبه ألا يقبل خبرا إلا إذا رواه اثنان . ولقد عرضت على أبي بكر حوادث كثيرة رجع فيها إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس فيها أنه طلب ممن أخبر عن رسول الله راويا آخر يشهد له إلا هذه الحادثة . بل ذكر الرازي في المحصول أن أبا بكر قضى بقضية بين اثنين فأخبره بلال أن رسول الله عليه السلام قضى فيها . بخلاف قضائه فرجع (٣) . فإن صحت هذه الرواية كان ذلك مؤكدا لما ذهبنا إليه ، وقد أخرج ابن القيم عن أبي بكر خطته في القضاء فقال : « كان أبو بكر إذا ورد إليه حكم نظر في كتاب الله تعالى فإن وجد فيه

(١) وقد أعلها ابن حزم : ١٤١/٢ بأنها منطقة فلا تصح

(٢) المحصول للرازي ج ٢ مخطوط .

(٣) الرسالة ص ٤٣٤ ويرى ابن حزم أن عمر كان يرى ذلك أول الأمر فلما عاتبه أبي رجع

عن ذلك وأصبح يقبل خبر صحابي واحد انظر الأحكام : ١١٠ / ٢ .

ما يقضى به قضى به ، وإن لم يجد في كتاب الله نظر في سنة رسوله فإن وجد فيها ما يقضى به قضى به ، فإن أعياء ذلك سأل الناس هل علمتم أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى فيه بقضاء ؛ فربما قام إليه القوم فيقولون قضى فيه بكذا وكذا . فإن لم يجد سنة منها النبي صلى الله عليه وسلم جمع رؤساء الناس فاستشارهم ؛ فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به (١) .

والحاصل أننا لا نجد في نص من النصوص أنه طلب ممن حدثه بحديث عن النبي راويا آخر إلا نص الجدة ، وهذا يحتمل أن يكون من أبي بكر زيادة في الاحتياط والتثبت فقط . خصوصا وأن توريث الجدة إثبات حكم لم يرد في القرآن ؛ فكان تشريعا لا بد فيه من الاحتياط والتوقي لا أن ذلك خطة دائمة له وطريقة درج عليها ألا يقبل حديثا إلا إذا رواه اثنان . قال الغزالي في المستصفى : « أما توقف أبي بكر في حديث المغيرة في توريث الجدة : فلعله كان هناك وجه اقتضى التوقف وربما لم يطلع عليه أحد ، أولينظر أنه حكم مستقر أو منسوخ ، أوليعلم هل عند غيره مثل ما عنده ليعكون الحكم أوكد أو خلافه فيندفع ، أو أظهر التوقف لثلا يكثر الإقدام على الرواية عن تساهل ، ويجب حمله على شيء من ذلك إذ ثبت منه قطعا قبول خبر الواحد ، وترك الإنكار على القائلين به . » أما خطة على فإن صح ما روى عنه من أنه كان يستحلف الراوى — وأنا أسنغرب ذلك — فلا كلام لنا فيه . وإلا فهو في ذلك كبقية الصحابة ؛ بل لقد نقل عنه صاحب المحصول : « أنه قبل رواية المقداد بن الأسود في حكم المذى (٢) أى من غير تحليف » على أنه في النص الذى روى عنه لم يستحلف أبا بكر بل قال « . . . وصدق أبو بكر » فلا تكون قاعدة عامة .

والخلاصة أن الثابت الصحيح من عمل أبي بكر وعلى أخذهم بخبر الراوى الواحد فقط ، والحالات التى اقتضت طلب آخر أو استخلافه لا يستلزم ذلك أن يكون مذهبا عاما وخطة مقرر ، وبهذا التوجيه والتحقيق يلتقى عمل هؤلاء الصحابة الثلاثة الكبار مع عمل الصحابة الآخرين من حيث كفتائهم براو واحد .

(١) إعلام الموقعين ٥١ .

(٢) المحصول ج ٢ .

(٣) الفصل الرابع من الباب الثاني ص ٨٨ .

اللسنة المفتتنة

للأستاذ محمود محمد شاكر

مما يُستخرج به الضحك أن يحدثك المحدث أو الكاتب بشيءٍ سخيفٍ لا يُعقل ، وهو يُبدي لك الجدّ كل الجدّ فيما يحدث أو يكتب . ولكنه عندئذٍ لا يريد إلاّ إضحاكك . فإذا جاء امرؤ يفعل ذلك وهو لا يريد إلاّ الجدّ ، لأنّه قد بنى حديثه عليه عند نفسه وعند سامعه أو قارئه ، فهذا هو المضحك الحزن معاً . ولكن من العجيب أن يكون هذا السمت الأخير ، هو سمت أكثر الذين يكتبون اليوم في تاريخ الإسلام . ومن البلوى أن يأتي هذا في زمن أصبحنا فيه وأصبح الناس ، وكلّ حرف مكتوبٍ يعدّ عندهم كأنه تنزيلٌ يتلقّونه بالثقة والتسليم لا يكادُ امرؤ منهم ينظر في مآناه من أين أتى ، ولا في منتهاه إلى أين ينتهى . فإذا اجتمع إلى هذه البلوى بلوى الهوى المخلوط بالغلوّ ، خرج الأمر كله من الضحك والحزن ، إلى الهلاك المطبق الذي يغتال العقول والنفوس جميعاً .

رى الكاتب ذو الهوى خيراً أو أجيّاراً ، فلا يدفعه هواه إلا إلى أخذ أقربها موافقة لهواه ، ويمنعه الهوى من التمييز ، ويحمّله التعبّد للحرف المكتوب أن يغمض كلّ بصيرةٍ عن مواضع الدّخل والغشّ والزّيف فيما كتّيب ، وتشدّ البلوى حين ينتصب لهذا التزوير المدّمّر رجالٌ يلبسون للناس ثياب الغيرة على دين ربهم ، والحمة لماضى أمّتهم ، والجهاد في سبيل إعزاز هذا الدين بأنفسهم وألسنتهم . وتجتمع عليهم وعلى الناس صواعق الهلاك ، حين يخدع عامة الناس أمرهم ، فيتلقّون عنهم معاني وأحكاماً وأخباراً ، وما شئت من حصائد الألسنة ، على غير هدى ولا بينة . فيوشك أمر الناس أن ينتهى إلى الرّدة الماحقة ، والكفر المستعِلن . كما مضى مثل الأولين ، الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، حين استنصحووا الأحبار والرهبان فأطاعوهم على غير هدى ولا بينة ولا كتاب منير .

* * *

وقبل أن أفضى إلى الأمثلة التي تبين عن الفساد والضلال ، أحبّ أن يعلم من لم يكن يعلم ، أن أسلافنا رضى الله عنهم وغفر لهم ، منذ ألفوا كتبهم ، وضعوا لها قواعد يعرفها أهل هذا العلم ، ويجهلها من جنح عن أصولهم وعمى عليه طريقهم . فهم منذ

بدأوا يكتبون أسسوا كتبهم على إسناد الأخبار إلى رواتها ، وبرثوا من عهد الرواية بهذا الإسناد ، ولم يبالوا بعد ذلك أن يكون الخبر صحيحاً أو ضعيفاً أو زائداً أو ناقصاً أو موضوعاً مكذوباً ؛ لأنهم كانوا يعلمون حال الرواة ومنازلهم من الصدق والكذب ، ومن الورع والاستخفاف ، ومن الأمانة والهوى . وكأنهم أرادوا بهذا أن يجعلوا كتبهم في التاريخ وغير التاريخ ، سجلاً لما قد قيل في زمانهم وما قبل زمانهم ، وما كان يقوله قومٌ ، وما كان يقوله آخرون ، مهما تعارض القولان أو اختلفا أو تناقضا . وتركوا للعلماء تمييز الحق من الباطل ، والصدق من الكذب ، على أساسهم المشهور ، وهو معرفة الرجال الذين رووا هذه الأخبار أو تكذبوها . هذا الطبرى مثلاً (توفي سنة ٣٢٠) يقول في فاتحة كتابه في التاريخ : « فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين ، مما يستنكره قارئه ، أو يستشعنه سامعه ، من أجل أنه لم يعرف له وجهها صحيحاً ، ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا ، وإنما أتى من بعض ناقله إلينا ، وإنما أدبنا ذلك على نحو ما أدب إلينا » . ومن عرف كتابه وكتب القوم ، علم يقيناً صدق ما يقول ، فإنه يأتي بالخبر لا يصح أبداً ، وبالخبر الصحيح الذي لا شك فيه ، ولا يعرض لهما بتصديق أو تكذيب ، ثم تراه في موضع آخر قد احتاج إلى البيان عن حال هذين الخبرين ، فعندئذ يميز لك ما هو صحيح عنده وما هو باطل من هذين الخبرين . فهو كما قال ، إنما يؤدى إلى الناس ما أدى إليه . وكان الناس على عهدهم أهل دين وتقوى ، لا يستحل امرؤ منهم — إلا من ضلَّ — أن يحتج في دين الله ، ولا في تاريخ الناس والحكم عليهم ، بخبر لا يدرى أصدق قائله فيما روى أم كذب . ثم جاء من بعدهم قوم خلطوا عامة الأخبار بلا إسناد إلى رواتها ، فاجتمع الغث والسمين والصحيح والسقيم ، والصادق والمكذوب . ولكن لم يزل دين الناس يعصمهم من شر هذا الخلط المضل ، فأمسكوا ألسنتهم عن الخوض في المطاعن والمثالب بلا بيعة ولا حجة . فلما جاء زماننا هذا ، بَشِعَ الأمر وقُبِحَ . فإن الناس قد هجروا أدب دينهم ، ومروءة أسلافهم ، وعلم كتبهم ، واقتحموا بالجهالة على الظنون المردية ، واستخفهم الهوى حتى أخذوا الباطل وعارضوا به الحق بلا تمحيص ولا رواية ولا فهم . وشابهوا زمن هذه الحضارة الغالبة عليهم ؛ فاجترؤوا وتهوروا واستغلظوا معاني وألفاظاً يتقاذفونها في ألسنتهم وكتبهم ، وقد نفى الشيطان من قلوبهم كل معاني الورع وخافة العذاب يوم القيامة ، حتى قدفوا بالغيب من مكان بعيد ، واجترأوا على أمحباب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأوهامهم وأهوائهم فأخشوا القالة فيهم وفيمن تبعهم ، بلا معرفة ولا تخوف ، ورب العالمين ينذرهم فيما يتلون من كتابه :

« وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا » .

أفترأهم يحسبون أن الله حرّم عليهم أعراض عباده الأحياء ، وأباح لهم أعراض عباده الموتى ، بعد أن أفضوا إلى ربهم بأعمالهم وغيبهم وما قدّموا من حسنات وسيئات ؟ ! ألا فليعلموا أن الميت أولى بأن تكفّ عنه السنة المقتربين من الحيّ ، فإنه لا يدفع عن نفسه ، وليتقوا عذاب ربهم ، فإنّ الذي لا يملك أن يدفع عن نفسه ، يدفع عنه ربّ العالمين الذي أحصى كل شيء خلقه ثم يحكم بينهم بالعدل وهو العليم القدير .

وأعود إلى هذا الكاتب الذي طرح لسانه في معاوية بن أبي سفيان وأبيه وأمه ، وفي عمرو بن العاص ، وفي عامة بني أمية ، ووصفهم وصفاً آذاهم بغير ما اكتسبوا . وأنا لن أجادله في صواب ما يدّعي أو خطئه ، ولن أعرض لتزييف أحكامه وأحكام أشباهه من الطاعنين بألسنتهم في أعراض المؤمنين ، حتى يخرجوهم من الدين ، وينسبوه إلى التغيير والتبديل . بل أريد أن أعرض على الناس بعض ما يروى ، حتى أعرف لم ترك خبراً وأخذ آخر ؟ ولم صدق رواية وأعرض عن أخرى ؟ ولم وضع قاعدة في أمر ثم أغفلها في مثله ؟

كان مما جعله من سيئات معاوية رضى الله عنه في سياسة الحكم توليته يزيد بن معاوية فروى أن يزيد « كان فتى شراب وهو يبلغ فيه إلى حدّ التفاهة ، فيعنى بتدليل القروود وتزييتها ، أكثر مما يعنى بسياسة الحكم ومصالح الرعية . . . إلى نزق وطيش وفتون » . ومن المفيد أن أنقل مع هذا أيضاً قول قائل آخر في صفة يزيد « ويزيد هذا شاب خليع لا يصلح أن يلي أمر مدرسة ابتدائية ، بله أن يقف على منبر الرسول ، ويحل مكان أبي بكر وصحبه » .

وما كنت أظن قط أن عاقلاً يرتضى لنفسه مثل هذا الزلل ، فإن معاوية عند هؤلاء إنما دبر الأمر تديراً هو وعمرو بن العاص وأشباههما (كما يقول) ، حتى يأخذ الخلافة فيجعلها ملكاً عضواً لبني أمية أو بني عبد شمس . فالذى يفعل ذلك ، ويستخلص الملك لنفسه وأهله من جمهور أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليقم عرش بني أمية على أكبر رقعة من الأرض متباعدة الأطراف ، لا يفعل ذلك إلا وهو يريد المحافظة

على هذا العرش وحياطته وتديره حتى يصبح ملكاً متوارثاً فيما يزعمون . هذا صريح العقل فيما أظن . فهب أن معاوية رضى الله عنه كان فاسد الدين مبدلاً مغيراً مفتاتاً على أهل الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، أفكان أيضاً فاسد العقل والتدبير ؟ ولو كان فاسد العقل والتدبير ، فكيف استطاع أن يصل إلى حكم أهل الشام عشرين عاماً في ولايته وعشرين أخرى في خلافته ؟ وأى فساد في عقل إنسان يجاهد بسوء نيته عشرين عاماً لإقامة ملك عضوض ، ثم يورث هذا الملك شاباً يصفه واصف بأنه فتي لهو وشراب يبلغ إلى حد التفاهة ، يعنى بتربية القروود وتدليلها أكثر مما يعنى بسياسة الحكم ومصالح الرعية ، إلى نزق وطيش !! ويصفه آخر مثله بأنه شاب خليع لا يصلح أن يلى مدرسة ابتدائية بله أن يقف على منبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ويحل محل أبي بكر وصحبه (رضى الله عنهم) !! أليس هذا عجيباً عجباً ؟ ولكن لا عجب في زماننا مع الأسف ! ولا عجب مع اللجاجة والهوى واقتراء الألسنة وتهور الأقلام ! ومن العبث عندي أن يجادل المرء أمثال هؤلاء . وسأتناول الآن كتاباً للبلاذرى (توفى في نحو سنة ٢٨٠) ، ويقول عنه مؤرخوه إنه كان « عالماً فاضلاً شاعراً راوية نسابه متقناً ، وكان مع ذلك كثير الهجاء بنىء اللسان أخذ الأعراس » . فإذا البلاذرى هذا الذى وصفوه بما وصفوه ، يروى في أول ترجمته ليزيد بن معاوية عن رواية وصفهم علماء الرجال بأنهم من الكذابين والوضاعين ومن التشيعين الغلاة فيقول :

« كان يزيد بن معاوية أول من أظهر شرب الشراب ، والاستهتار بالغناء والصيد ، واتخاذ القيان والغلمان ، والتفكه بما يضحك منه المترفون ، من القروود والمعافرة بالكلاب والديكة . ثم جرى على يده قتل الحسين وقتل أهل الحرة ، ورمى البيت وإحراقه . وكان مع هذا صحيح العقدة فيما يُرى ، ، ماضى العزيمة ، لا يهم بشيء إلا ركه » ثم ذكر أخباراً في لعبه بالقروود وشربه الخمر . ثم ذكر بعد ذلك بإسناده قال : « قال رجل لسعيد بن المسيّب : أخبرنى عن خطباء قريش . قال : معاوية وابنه يزيد . . . » ثم روى بعد أسطر عن المدائنى عن عبد الرحمن بن معاوية قال : قال عامر ابن مسعود الجمحى : إنا لجمكة إذ مر بنا بريدنعى معاوية ، فنهضنا إلى ابن عباس وهو بمكة وعنده جماعة ، وقد وضعت المائدة ولم يؤت بالطعام . فقلنا له : يا أبا العباس ، جاء البريد بموت معاوية . فوجم طويلاً ثم قال : اللهم أوسع لمعاوية . أما والله ما كان مثل من قبله ولا يأتى بعده مثله . وإن ابنه يزيد لمن صالحى أهله . فالزموا مجالسكم ،

وأعطوا طاعتكم وبيعكم . هات طعامك يا غلام . » ويزوي أيضاً : « أن سبب وفاة يزيد أنه حمل قرده على الأتان وهو سكران ثم ركض خلفها ، فسقط ، فاندقت عنقه ، أو انقطع في جوفه شيء » ثم يعود بعد ستين صحيفة يروي أيضاً « وكان سبب موت يزيد أنه ركض فرسا فسقط عنه وأنه أصابه قطع ، ويقال : إن عنقه اندقت » . هذا ضرب من الرواية لا يشك شك أن بعضه يناقض بعضاً في كتاب واحد ، فابن عباس ، وهو أعلم قريش بقريش ، يقول عن يزيد إنه من صالحى أهله ، والذي يروي خبر استهتاره بالغناء والخمر والقروء ، يختم كلامه بأنه « كان مع هذا صحيح العقدة فيما يرى » أى صحيح الاعتقاد والإيمان ، وأنه كان « ماضى العزيمة لا يهم بشيء إلا ركبته » فأين هذا من الذى استباح لنفسه أن يجعله بالغاً حد التفاهة والترف والطيش ، ومن الذى جعله لا يصلح أن يلى أمر مدرسة ابتدائية ؟ وأين هذان من سعيد بن المسيب ، الذى عده هو وأباه من خطباء قريش ؟ أفيكون الفقى التافه الخليع الطياش ، خطيباً معدوداً في خطباء العرب ، إلا إذا كان سعيد يعد من الخطباء أولئك المتشدقين التثاوين لخطباء عصرنا هذا !

ثم يكون ماذا إذا وجدنا من يروي كلام من يصف يزيد بما زعموه من شرب الخمر واللعب بالقروء ، ثم يعقب فيروي أن أهل المدينة لما رجعوا من عند يزيد : « مشى عبد الله بن مطيع وأصحابه إلى محمد بن الحنفية (وهو محمد بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما) ، فأرادوه على خلع يزيد ، فأبى عليهم ، فقال ابن مطيع : إن يزيد يشرب الخمر ، ويترك الصلاة ، ويتعدى حكم الكتاب . فقال : ما رأيت منه ما تذكرون ، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيت موافقاً على الصلاة ، متحريراً للخير ، يسأل عن الفقه ، ملازماً للسنة . قالوا : فإن ذلك كان منه تصنعاً لك . فقال : وما الذى خاف منى أوجا حتى يظهر إلى الخشوع ؟ فأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر ؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه ، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا . قالوا : إنه عندنا لحق وإن لم نكن رأيناه . فقال لهم : أبى الله ذلك على أهل الشهادة فقال : « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » ولست من أمركم في شيء . قالوا : فلعلك تذكره أن يتولى الأمر غيرك ، فنحن نوليكَ أمرنا . قال : ما أستحل القتال على ما تريدوننى عليه تابِعاً ولا متبوعاً . قالوا : فقد قاتلت مع أبيك ؟ قال جيتونى بمثل أبى أقاتل على مثل ما قاتل عليه . فقالوا : فمر ابنك أبا القاسم والقاسم بالقتال معنا . قال : لو أمرتهما قاتلت . قالوا : فقم معنا مقاماً تحضُّ الناس فيه على القتال . قال : سبحان الله ! أمر الناس بما لا أفعله ولا أَرْضاه ! إذن ما نصحتُ الله في عباده . قالوا :

إِذْنُ نُكْرِهَكَ ! قال : إِذْنُ أَمْرُ النَّاسِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَلَا يُرْضُونَ الْخَلْقَ بِسُخْطِ الْخَالِقِ . وَخَرَجَ إِلَى مَكَّةَ . فَهَذِهِ شَهَادَةُ رَجُلٍ قَاتِلٍ مُعَاوِيَةَ نَفْسَهُ ، وَخَلِيقٍ أَنْ يُعَدَّ عَدُوًّا لَهُ وَالْمَلِكَةَ فِيمَا يَزْعُمُونَ .

فما الذى جعل هؤلاء يرجحون هذه الروايات عن فسق يزيد وفجوره ، على صلاح أمره وتستتره ؟ لا أدري !

فهذه الأخبار كلها موجودة مذكورة مروية في كتب التاريخ ، فبأى حجة يحتاج الآخذ فيما أخذ ، والتارك فيما ترك ؟ لست أدري أيضاً . فلما أن يفعل هؤلاء المتدسسون إلى التاريخ ما فعل أوائلهم من جمع الفث والسمين والصحيح والسقيم ، ثم يكفوا ألسنتهم عن المعابة والإقذاع وسوء الأدب ، وإما أن يأتوا الناس بحجة أو بيان يرجح أقوالهم فيما قالوا وما اختاروا من الروايات . وإلا فإن الله ربهم آخذهم فمحاسبهم فمعطيهم نصيبهم من العذاب الذى أنذر به من آذى المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا . وأنا أكتب هذا لقوم وصفتهم بأنهم يلبسون للناس ثياب الغيرة على الدين ، والحمية لماضى سلفهم . ولو كنت أعلم أنى أكتب للزنادقة أو للمتبرئين من دين ربهم ، لكان لما أكتب شأن آخر ، وطريق غير هذا الطريق . ومع ذلك ، فإنى سوف أرتكب لهم فيما بعد طريقاً أنفى به الدخول والفساد والتزوير فى تاريخ سلفى رضى الله عنهم وغفر لهم ما قدموا من سيئ وأثابهم بما فعلوا من صالح . ولست أكتب هذا دفاعاً عن يزيد ، فإن يزيد نفسه دافع يوماً ما عن نفسه فيما ترويه كتب التاريخ التى ينقلون عنها ، أو قل يدلسون بالنقل عنها ، إذ سمع قالة الخارجين عليه والكارهين لخلافته أو ولايته إذ قالوا : « إنه رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويعزف بالطناير ، ويضرب عنده القيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسامر الخرباب والفتيان » وبلغه أن المنذر ابن الزبير ، انطلق من عنده بعد أن أكرمه وأحسن إليه ، فأنحاز إليهم ، فقال بمثل قولهم فأكثر وقال : « إنه يشرب الخمر ويسكر ، حتى يدع الصلاة » فقال يزيد : « اللهم إني آثرته وأكرمته ففعل ما قد رأيت ، فاذكروه بالكذب والقطيعة » . لم يملك يزيد إلا أن يلجأ إلى ربه ليذكر هؤلاء بالكذب وقطيعة الأرحام . وماذا ينفع الدفاع عن النفس مع من لا يتورع من كذب ، ولا يتجافى عن قذف الناس بما يعلم أنه ليس فيهم ؟

وأقول مرة أخرى أن ليس همى أن أدفع عن يزيد ، ولا أن أصحح كتابة التاريخ ، ولكننى أكشف عن أصحاب الأهواء الذين يتغلغلون بين الناس ، وينفثون فيهم داء

الهوى والعصبية ، حتى يقعوا في أعراض عباد الله بالمذمة والإقذاع وبسطة اللسان ، فاتبعوا بذلك طريق الرافضة أهل الغلو والعداوة لأصحاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلو شاء هذا الكاتب أن يحقق معنى العدل والدين فيما يكتب ، لوجد الطريق واضحاً لا يضطرب عليه ، ولكنه ركب أهواء الرافضة حيث ركبوا ، فأخذ ما حمله له الهوى من الطعن في يزيد ليطعن أباه رضى الله عنه وغفر له ، وهو يعلم أنه أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . نعم ليس من أدب أهل الروعة ، ولا أقول الدين أن يؤخذ الوالد بجريرة ولده ، إلا بيينة لا ترد ، ولكنه فعل . لا بل فعل أيضاً ما هو أكبر من ذلك في سبيل الطعن على رجل كان ينبغي أن يمسك لسانه عنه في الخطأ الظاهر ، لأنه أحد أصحاب رسول رب العالمين ، فإن لم يستطع أن يمسك لسانه فليطلقه بالاستغفار له كما أمره ربه أن يستغفر لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . نعم ليس من أمانة التاريخ في شيء ، بل ليس من أمانة العقل في شيء ، بل ليس من أمانة الإنسان مجرداً من كل دين يتبعه ، أن يرفض الروايات الصحيحة والأخبار المحكمة ، خبر مجهول لم يوجد إلا في كتاب طعان معروف بثلب عدو له ، ويرفضها كلها لقاعدة أقام عليها رفضه ، هي أن هذه الروايات الصحيحة والأخبار المحكمة ، إنما أشيعت بعد الظفر بالملك ، أشاعها الأنصار والأتباع ، كما يفعل سائر الدعاة . ثم لا يتوقى أن يكون الطعن والسلب من العدو ، هو أيضاً من إشاعة الأعداء والمفترين ، كما يفعل سائر الدعاة حين يريدون التشنيع على أعدائهم والوقية فيهم ، وصرف الناس عنهم ، وهاك المثل .

يقول هذا الكاتب : « بقي ما اشتهر خطأ من أن معاوية كان كاتب الوحي لرسول الله . فالصحيح أن أبا سفيان حين أسلم ، رجى النبي (صلى الله عليه وسلم) في أن يسند إلى معاوية شيئاً يعتز به أمام العرب ، ويعوض عن سبب التأخر في الإسلام ، وأنه من الطلقاء الذين لاسابقة لهم في الإسلام ، فاستخدمه النبي صلى الله عليه وسلم في الرسائل والحوائج والصدقات . ولم يقل أحد من الثقات : إنه كتب للنبي شيئاً من الوحي ، كما أشاع أنصاره بعد استقرار الملك ، كما يصنع سائر الدعاة ! » . سبحان الله ! « لم يقل أحد من الثقات » ؟ فأين الثقات الذي قالوا إن النبي صلى الله عليه وسلم استخدمه « في الرسائل والحوائج والصدقات » ! وأنا لا أنعرضُ هنا لفساد معنى هذا الكلام من حيث هو كلام عربي له دلالة على معانيه ، بالألفاظ التي ذكرها هذا الكاتب ، بل أكشف له ونيره من أين

أخذ كلامه ؟ ومن هو هذا « الثقات » الذي يروى عنه ؟ فهذا « الثقات » رجل من الرافضة كان في زمن ابن تيمية . ألف كتاباً سماه « منهاج الكرامة » ، فأنبرى له ابن تيمية ردّ عليه في كتاب سماه « منهاج السنة » فكان ممّا نقله من نصّ كلامه (٢ : ٢٠١) : « وسمّوه (يعنى معاوية) كاتب الوحي ، ولم يكتب له كلمة واحدة من الوحي ، بل كان يكتب له رسائل (وزاد كاتبنا هذا مالا نعرف معناه ، الحوائج والصدقات !!) . وقد كان بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، أربعة عشر نفساً يكتبون الوحي ، أولهم وأخصّهم وأقربهم إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، مع أن معاوية لم يزل مشركاً بالله تعالى في مدة كون النبي صلى الله عليه وسلم مبعوثاً يكذب بالوحي ويهزأ بالشرع » . ولست أدري لم ترك هذا الكاتب سائر ما ذكره الرافضي ، فيزعم أيضاً أن معاوية ظل مشركاً لم يؤمن مدّة بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ كلاً كلاً فلعلته استغنى عنه بأن جعله بطريق آخر « بريثاً من الإسلام والإسلام برىء منه » !

وقد ردّ ابن تيمية في ص ٢١٤ بقوله : « هذا قول بلا حجة ولا علم ، فما الدليل على أنه لم يكتب له ولا كلمة واحدة من الوحي ، وإنما كان يكتب له رسائل » . وأزيد أنا فأقول : أو من الهين عند هذا الكاتب وأشباهه أن يكتب امرؤ لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسائله ؟ ! أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يملأ رسائل لشغل فراغه ، وقضاء حوائجه ، ومجاذبة أصدقائه ، والتلهمي بأملاء صفائر الأمور التي يتعاش بها الناس في شئون دنياهم ! ! عجيب ! ولكن لا عجب في زماننا ، ومن أين يأتي العجب ، بل كيف يطيق إنسان أن يعجب بعد أن تبلد حسبه بالعجائب ترى لا تنقطع ، حتى صار المعروف منكراً والنكر معروفاً ! وأنا لن أدلّ الكاتب على حيث قيل إن معاوية كان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكني أحب أن يأتي هو الناس « بثقات » آخر ينفي أن يكون معاوية كتب الوحي لرسول الله ، وأنه إنما كان يكتب له في الرسائل والحوائج والصدقات أيضاً !

وإذا كان قد استطاع بالأمانة والذمة أن يزيّف قول من قال إنه كان يكتب الوحي لرسول الله ، بأن ذلك من قول أنصار معاوية أشاعوه وأذاعوا به ، أفلا يستطيع أن يزيّف ولو مرة واحدة كل ما رواه في كتابه عن معاوية وعن أبيه ، وعن أمه ، وعن يزيد وعن بني أمية ، وعن عمرو بن العاص ، بأنه بما أشاعه وأذاع به أعداؤهم وأعداء

بنى أمية؟ أو ليس صريح العقل يقتضى أن يكون المهزوم المقهور ، أحرص على ذكر مثالب عدوه ومعاييه ، من الغالب المنصور على ذكر مناقبه وفضائله !

ألا إن هذا الكاتب وأشباهه من أصحاب الألسنة الجريئة على الحق ، يرتكب كل صعب وذلول في سبيل تحقيق معان تدور في نفوسهم ، لا يجدون لها متنفساً إلا في الهالكين الذين لا يدفعون عن أنفسهم ، وهم لا يبالون في سبيل ذلك بتحقيق ولا علم ، ولا بتميز صحيح من سقيم ، ولا يتخطفون من الكلام إلا ما قارب ما يريدون في أنفسهم أن يقولوه ، ولا يعرفون للحجة حرمة ، ولا للبرهان كرامة . وهم يتناولون ما يعرضون له من تاريخ أسلافهم ، بل من أمر صحابة نبيهم صلى الله عليه وسلم بنفس الأسلوب الذى انحدر علينا من حضارة هذا القرن ، في أدب منازعات الصحف والأحزاب . أسلوب يراد به تحقيق معانى العداوة وتقريرها في النفوس ، لا أسلوب تحقيق مواطن الخلاف والكشف عنها بالبيان والبرهان . وهم يريدون أن يجعلوا هذا الأسلوب علماً وتاريخاً ، بل يريدون أيضاً أن يجعلوه ديناً يتدين به الناس ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل ؟ « الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ » .

جراحة العلماء ...

دخل عمرو بن عبيد على أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور وكان أعظم ملوك الدنيا فى عصره فقال :

يا أمير المؤمنين : إن الله عز وجل يَقفك ويُسائلك عن مثقال ذرة من الخير والشر ، وإن الأمة خصماؤك يوم القيامة ، وإن الله عز وجل لا يرضى منك إلا بما ترضاه لنفسك ؛ ألا وإنك لا ترضى لنفسك إلا بأن يعدل عليك فإن الله عز وجل لا يرضى منك إلا بأن تعدل فى الرعية . يا أمير المؤمنين إن وراء بابك نيرانا تتأجج من الجور ، والله ما يحكم وراء بابك بكتاب الله ، ولا بسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

حسن البنا

« هذه خواطر جالت بنفسى فى أيام من العمر لا تنسى »

١٣ فبراير سنة ١٩٤٩

فاجعة ..

صليت الفجر وجلست أكتب على الآلة الكاتبة بعض أشياء للمؤتمر الإسلامى ، ثم عدت فوجدت فى انتظارى خبر الفاجعة الكبرى أكاد لا أصدقها !! . يدي لا تستطيع أن تحرك القلم !! . مقتل حسن البنا . . لا أكاد أصدق !! كذب ! لا بل حق هو خبر أذيع : أصيب الرجل العظيم بالرصاص مساء أمس ثم نقل إلى المستشفى مضرجا بدمه الطاهر ، ثم فاضت روحه أثناء الليل إلى عليين !! وتركنا على الأرض نعانى شرها ومرها ! . قتلته يد آئمة أساءت إلى الإسلام الإساءة الكبرى .

هيه يا فضيلة المرشد : سلام عليك حيث أنت فى قدسك وعليائك ، وجزاك الله خير ما جزى إماما عن تلامذته وأتباعه .

كان حسن البنا إماما بكل ما تسع الإمامة من معنى ، كان مثلاً أعلى فى كل شيء : فى علمه . فى إيمانه . فى إخلاصه . فى نشاطه . فى حدة ذكائه . فى دقة ملاحظته . فى قلبه الكبير وروحه الطاهرة .

كان حسن البنا حجة الله فى نفسى على أن الإسلام يصنع الرجال ويحقق المثل العليا ، ويصوغ النور المصفى من لحم ودم . كان عقلا هائلا . وروحا موصولا بالسرى الأعلى لا يفتر عن ذكر الله . كان قمة شاحخة فيها العلو وفيها الثبات ، وفيها قوة الجليل . كان عظيما موفقا لا يخطئ الوجهة . كان رائعا ملأ قلوبنا بحب الله ، وأشعل صدورنا بحب الإسلام ، وصهرنا فى بوتقة طاهرة لا تشوبها شائبة .

قتل حسن البنا فى يوم أسود من أيام التاريخ ، وفقدت الإنسانية بفقده « إنسانا » قلما يجود الزمان بمثله .

قتل حسن البنا بعد عشرين عاما قضاه فى جهاد مرير متصل الأيام والليالى . لن أنسى جولاته فى الأقاليم لا ينام إلا ساعتين أو ثلاثا كل يوم ، ولن أنسى سهره الليل عاكفا فى المركز العام ، أو فى منزله ، أو فى الشهاب على أعمال الدعوة ، ولن أنسى دموعه التى طالما هتنت فى غفلة من الناس على الإسلام والمسلمين .

هذا الصوت العميق الرخيم ، وهذا الإيمان الحى الغامر ، وهذه الروح المشرقة التى عرفتُ بها الله ، وطوتنى أشعتها ونشرتني سبع سنين كانت حلما عزيزا .
هذا الرجل العجيب الذى بعث الأمة من أعماقها ، وهزها هزة عنيفة أسالت الحياة فى وجدانها ، ولم يتركها إلا وقد خلف فيها جيلا كريما حيا يعرف ربه ، ويؤدى واجبه .

هذا الإمام الذى كان أملا خفاقا ساقته رحمة الله فى عصر مظلم داعر أمره فرط هو الذى قتلوه قتلة ستظل وصمة فى جبين مصر والمصريين . جوزى بها جزاء سنار .

الجمعة ١٨ مارس سنة ١٩٤٩

لم نمت ..

كنت أنظر الآن من شرفة غرفتى بفندق « سرتاج » بكراشى فرأيت شابا ينحني انحناءة ذكرتني بأخ عزيز من إخوان مصر .

هيه يا إخوة مصر . يا شبابها الطاهر . يا نور النبوة وميراث المجد الغابر ، وعزاء القلب الجريح . ما كان يدور بالبال أن يوما سيأتى يحال فيه بيننا بهذا السياج الآثم من زبد الرياح الهوج بعد أن تنسمنا أنسام الحق والحرية بين يدي الرجل العظيم .
كان حسن البنا نسمة حلوة جادت بها رحمة الله على الإنسانية الظامئة . ثم مرت عابرة بعد أن ذكرتنا بأيام الأنس الأولى : أيام الأنبياء والمرسلين وأحباب الله فى أرضه ، وحببت إلينا الجنة والخير ، والمثل العليا والسمو ، وكل ما بينه وبين الله نسب من القبول والرضا ؛ لأن حسن البنا كان نسبة خالصة ليس فيها لغير الله نصيب . . كان روحا نعباً منه ولا يغيض ، وبحرا صافيا تذوب فيه كل أوساخنا ويظل هو هو طهورا مرسلا لا يضيق ولا يعتكر .

هيه يا فضيلة المرشد . أحق ما يقولون من أنك مت ، ومت قتيلا فى شارع من شوارع القاهرة ، ودفنت بعد أن صلى عليك نفر قليل فى مسجد قيسون ، وكان المشيعون بضعة من أهلك وأقاربك ؟ . . لم نمت يا فضيلة المرشد ! ! لا والذى خلقك ! لا والذى أنعم علينا بك ! ! ومتعنا بصحبتك ! لقد فتحت قلوبنا على النور ، ووضعت أيدينا على أول الصراط وجمعتنا من شتات .

سنمضى إلى حيث كنت تدعو وربى وتحترق بالليل والنهار . لا زالت دروس الثلاثاء ، وكتائب المركز العام وأحاديثك الخاصة ، وخطب السراقات ، وهمسك فى لحظات الصفاء ؛ لا زال ذلك كله طى قلوبنا ، وأمانة الله فى أعناقنا .

لقد تركتنا يا فضيلة الأستاذ بعد أن حملتنا العباء القاسى ، وجعلته شهيداً مذاباً
في طوايانا وأعصابنا ! فاهناً — يا حبيب الروح — في جنة الخلد ، واسعد كفاء ما كاقت
الكفاح المر الطويل .

الجمعة ١٠ يونية سنة ١٩٤٩

نجوى ...

(في حجرتي العالية بمستشفى فاطمة جناح أرمباغ كراتشى باكستان حوالى الساعة
العاشرة صباحاً) .

سيدى فضيلة الأستاذ المرشد :

السلام عليك ورحمة الله وبركاته . وأسعد الله صباحك أيها الرجل العظيم . وهل
في الجنة صباح ومساء ؟ هكذا أراد الله لك الجنة ، وأن تركنا هنا حيارى بين ظلمة
ونور . كنا معك يا فضيلة الأستاذ طيوراً أطلقناها بإذن ربك من أقفاصها ؛ فراحت
تخفق بأجنحتها في هواء طلق ، ولكنها كانت لا تلبث أن تعود إليك ، وتخفق خفقة
الولاء لله بين يديك . أما بعد أن تركتها وطرت إلى أقدم جوار وأصدق منزل ،
فقد تناوشتها الرياح ، وهى الآن تبحث عن وكر هادىء تجتمع لديه . ليس يعلم إلا الله
— ياسيدى — ما تحبته الأيام لنا إلا أننا نسأل الله أن يثبتنا على العهد . .

أين روحك — ياسيدى — تزيل الران عن قلوبنا ؟ أين عيناك تقبس منهما نوراً
من أنوار السماء ؟ أين شرك الرائع الذى كان يجعلنا دائماً فى ثقة من أننا على الصراط ،
وفى اطمئنان إلى أن حسن البناء ليس فيه لغير الله شيء ؟ كنت — ياسيدى — الرجل
الذى أومن به ، واطمئن إليه ، وأجد الراحة كاملة فى صدق الفناء فيه .

لازلنا نذكر كلاناك : « أيها الإخوان : إني لا أخشى عليكم الدنيا مجتمعة . فأتم
بإذن الله أقوى منها . ولكنى أخشى عليكم أمرين اثنين : أخشى أن تنسوا الله فيكملكم
إلى أنفسكم ، أو أن تنسوا أخوتكم فيصير بأبكم بينكم شديداً » .

يا فضيلة الأستاذ : لن ننسى الله ، ولن ننسى أخوتنا ، وما فعل أعداء الله أكثر
من أن ذكرونا بهما ...

سيدى الأستاذ : تذكر يوم جاءك خبر استشهاد الأخوة الكرام فى أول معركة فى
فلسطين . وتذكر أنك قلت ساعتها « اشتقنا إلى الجنة ، لا إلى خيراتنا وفواكهها
ولكن إلى أبى كروعمروعثمان وعلى ، والصحب الكرام ، وهؤلاء الشهداء الأعزاء »
وقد استجاب الله لك . . هل رأيتم ؟ وكيف وجدتهم ؟ . . هنيئاً لك ما أنعم الله به

عليك ، عزة في الدنيا ، وكرامة في الآخرة » فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة .

آه يا أستاذ لم تعد مكلفا فأسألك !! ولسنا لنعلو إليك فنسمعك !! أصبح علينا أن نواجه الحياة بإيمان وعزم . وبذكر الذي بذرت سيؤتي أكله ومع اليوم غد . « فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا .. » والسلام عليك يا حبيب الروح ورحمة الله وبركاته !

الثلاثاء ١٩ يولييه ١٩٤٩

آخر لقاء .

(الساعة الآن التاسعة مساء وقد انتهت من الإفطار منذ دقائق ، وأنا أغسل يدي في ركن يطل على شارع محاذ لحديقة أرمباغ)
لمحت عربية تشبه عربية فضيلة الأستاذ المرشد التي تعود أن يركبها .. خفق قلبي وغار بين جنبي ، وأحسست بلفح الذكري يهز نفسي هزا . لازلت أذكر آخر لحظات رأيت فيها فضيلة المرشد الشهيد — أعزه الله — كأنها منذ ساعات فقط ، أو كأنها لا تزال باقية ، وكل ما أذيع من الأنباء كذب لا ينال منها ، ولا يؤثر فيها .
هاهو فضيلة المرشد الحبيب جالس بجلبابه الأبيض ، وعباءته البيضاء إلى مكتب في الحجرة القريبة من مسجد للمركز العام للإخوان .. وجه مشرق حلو ، وسمات ربانية عالية .. وصوت رخيم عذب فيه رضاء النبي الحبيب وجرس السماء الحلو .. و ..
انتهى فضيلة الأستاذ لتوّه من محاضرة ألقاها بالمركز العام ودّع فيها الإخوان لزمه السفر إلى الحجاز صبيحة الغد .

دعاني إليه ، وطلب إلى أن أستعد للسفر إلى شرق الأردن ، وزودني بخاصة أمره في ثقة غالية سأظل أعتر بها العمر كله .. ثم قبلت يده وقبل رأسي . وما كنت أعلم أن هذا آخر لقاء لنا في الدنيا ! . إلى أن يجمعنا الله مرة أخرى .

اللهم تقبل حسن البناء أحسن قبول . فقد كان وأنت — أعلم به — عبدا صادقا ، ومجاهدا أميناً ، وإماما جمع الكثيرين من فرقة وطهرهم من دنس ، وهداهم بإذنك من ضلال . اللهم ارفع درجاته عندك ، واجعله مع النبيين والصديقين ، وأسعده بالنظر إلى وجهك الكريم ، واجزه عنا خير ما أنت أهل له ، وأكرمه بالإكرام كله . اللهم أسعده . اللهم أسعده . اللهم أسعده .

اللهم وألحقنا به في الصالحين ، وثبتنا على العهد الذي عاهدناه ، وعوضنا عنه خيرا ، وألق في قلوبنا نوراً ينير لنا الطريق . اللهم آمين . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

الوحدة الإسلامية

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبي زهرة

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة فؤاد

« بحث مهدي إلى مؤتمر العلماء بمناسبة انعقاده في هذا الشهر بالباكستان »

١ — لقد ورد في الأثر (أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغريباء) وإذا كنا في عصر غربة الإسلام ، حتى إن النادي بمبادئه وآرائه وإصلاحه ليلقى الذي يلاقه من ينادى قوماً غريباء عنه لم يعرفوه ولم يأنسوا به ، ولم تخالط بشاشته وسماحته قلوبهم . إذا كان العصر كذلك فقد انطوى كل امرئ على نفسه ، وكل جماعة على أمرها .

ولكن في هذا الديجور المظلم بزغ نجم ثاقب بقيام حكومة إسلامية تؤنس الإسلام في غربته ، بل تزيل عنه معنى الاعتراب ، تلك الحكومة هي الحكومة الباكستانية الرشيدة ، فقد أشعرت المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أنها دولة إسلامية ، تحيي مبادئ الإسلام ، وتعمل على تحقيق الوحدة الإسلامية في صورة تتفق مع حال العصر ، وتباعد الأقطار ، وتثاني الأمصار ، ثم تعلن على الملأ من العالم أن المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يسلمه كما قال الرسول عليه السلام ، وأن المسلمين تتكافأ دماؤهم ، ومن قتل واحداً منهم فقد اعتدى عليهم ؛ فكيف بمن يحاول قتل إحدى جماعاتهم ، أو يبيد أهل إقليم من أقاليمهم ، أو يشرد جمعاً كثيراً من جموعهم .

٢ — وإن ذلك هو الإسلام حقاً وصدقاً ، فإن المسلمين مهما اختلف ألوانهم ، وشعوبهم ، وأقاليمهم أمة واحدة ، وقد قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ، ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم) .

وقال تعالى (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون)

ولقد بين النبي صلى الله عليه بأقواله وأفعاله الوحدة الإسلامية الجامعة ؛ فقد تضافرت عنه الروايات الدالة على الأخوة الإسلامية التي لا تفرق بين عربي وأعجمي ، ولا بين شريف وضعيف ، ولا بين إقليم وإقليم ، وقال في عبارة جامعة : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) وقال عليه السلام : (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) وغير هذا مشهور مستفيض ، حتى إن ذلك ليتواتر في المعنى ، فهو من المعاني التي تفهم من الإسلام بالضرورة ، ولا يعد من المسلمين من ينكرها ، أو يخالفها جحوداً بها .

وأما أفعاله المبينة لهذه الوحدة الجامعة ، فهي تلك المؤاخاة التي كانت تربط في جمعه عليه السلام بين القرشي والحزرجي والأوسي ، ومن كان من أصل يهودي . كما كان في الجمع بلال الحبشي ، وسلمان الفارسي . وهو يوحد بينهم ويقول لهم (كلكم لآدم وآدم من تراب ، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى) وقد بعث عليه السلام للأحمر والأسود والأبيض ، وجميعهم أمام الشرع سواء ؛ لا فضل إلا بالتقوى ، والقيام بحق الإسلام .

٣ — المسلمون إذن أمة واحدة ، وتلك حقيقة يُعَدُّ من نافلة القول بيانها ، فضلاً عن إقامة الدليل عليها ؛ لأنها مجمع عليها ، ولكننا في عصر الغربة قد أنكرت أفعالنا ما تقره عقولنا ، ونعلمه بالضرورة من هذا الدين الحكيم .

والأمة الإسلامية تقوم على الوحدة الدينية والاعتقادية ، والاجتماع على المبادئ والأخلاق والعبادات ، وكل يوم يمر يشعر المسلم فيه بهذه الوحدة إن أدى العبادة على وجهها ؛ فهي في قلبه أثناء الليل وأطراف النهار بالصلوات الخمس ، إذ يؤديها المسلمون جميعاً إلى قبلة واحدة فإذا تصور المسلم عند أداء الصلاة أنه واحد من ألوف الألوف يتجهون مثل اتجاهه ، ويولون وجوههم شطر بيت الله الحرام . علم أين تكون مثابته ، وأين تكون جماعته ، إنه عندئذ يدرك أنه لبنة في بناء أكبر مجتمع قام على الفضيلة والخلق القويم ، وإنك لترى ذلك الشعار السامي في الصوم ، وتراه في الحج أوضح إشراقاً ، وأعظم نورا ، إن أدركت القلوب معنى العبادة .

٤ — وإن قيام الاجتماع الإسلامي على مبادئ من الفضيلة والأخلاق الدينية هو أمثل الطرق لتكوين الجماعات ، ولا يعد الاجتماع العنصري من الطرق المثلى لتكوين الأمم ، ومثله الاجتماع الإقليمي أو الاقتصادي ؛ ذلك لأن الجماعة الواحدة لا تتكون بها أمة إلا إذا اتحدت المشاعر والأهواء والنزاع النفسية ، ولا تتكون هذه المشاعر تحت

سلطان تبادل المنفعة فقط ، أو مجرد الاجتماع في إقليم واحد ، فتقارب المكان وحده لا يقرب النفوس ، وتبادل المنفعة يكون عند قيامها ، ويزول عند زوالها ، ولا تتحد نفوس في هذا الظل العارض الذي يتغير بتغير الأحوال والأزمان ، ولم يعرف أن جماعة أو أمة تكونت من مجرد التبادل الاقتصادي أو الاشتراك في المنفعة المادية .

ولم يبق إلا الموازنة بين تكوين الأمة بالعنصرية أو بالدين ، وأنه بالموازنة الصحيحة يتبين أن السير بالإنسانية في مدارج الرقي ، وقيام العلائق البشرية على أسس من الفضيلة والمودة الواصلة ، إنما يكون تحت ظل الدين ، لا تحت ظل العنصرية .

ذلك لأن العنصرية تفرض دائماً تفضيل عنصر على عنصر ، وهي شكل من أشكال التجمع الحيواني إذ تجتمع فصيلة من الفصائل لتقاتل أخرى ، وتجتاز مكاناً تقيم فيه لغالب الآخرين ، فليس التجمع الإنساني على أساس العنصرية إلا بقية من بقايا الحيوانية المتناحرة في الإنسان ، وقد رأينا الألمان كيف جرّوا العالم إلى ويلات الحروب المبيدة باسم العنصرية ، وقاومهم غيرهم باسمها ، وإذا كتمت الدول الشرهة إلى الاستعمار أمرها ، فهي متغلغلة في نفوس أبنائها ، بل ليست فكرة الأمم الملونة والأمم البيضاء إلا صورة لتحكم العنصرية ، وبقية من بقايا الحيوانية المتناحرة ، بل هي أخص ظواهرها .

ولكن إذا كان الاجتماع باسم الدين فهو اجتماع لا يقوم على المغالبة ، بل على الأخوة العامة ، والمودة الراحمة التي تحت عليها الأديان وتدعو إليها . والاجتماع الديني يكون أمة تتحد فيها المشاعر نحو الفضيلة والمثل العليا التي تنزع بالروح الإنساني نحو الملكوت الأعلى ، ويخضع فيها الإنسان لخالق الأكوان وحده ، وعندئذ يعلو الإنسان على المغالبة والتناحر ، إلا إذا اعتدى عليه ، فعندئذ يؤذن له بالقتال ، (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . . .) ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) وفي هذه الحالة يكون القتال من دفاع الفضيلة ضد الرذيلة .

٥ — وإنه في الوحدة التي يكون أساسها الدين تكون العدالة الحقيقية ؛ إذ لا يكون ثمة فرق بين جنس وجنس ولون ولون . وإنما التفرقة حينما تكون الوحدة الجامعة العنصرية ، وإن في أمريكا الشمالية لبرة لأولى الأبصار فبينما نجد

الحريات للبيض فيها مكفولة ، والرق ملغى نجد ظلما لا يقل عن ظلم الجاهلية الأولى في معاملتهم للجنس الأسود بها ، فيكاد ذلك الجنس يكون مباح الدم ، وما سطر له من حقوق إنما هو خطوط مكتوبة على قراطيس ، ليس لها مظهر في العمل قط ، وأين هذا من قوله تعالى : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير) .

فالعلو في الاجتماعات التي توجد فيها المبادئ الدينية ، وتربط آحادها بمبادئ الأخلاق قائم على أساس فعل الخير والفضيلة لا على أساس نبل الدم ، أو كرامة السلالة . وإذا كان فعل الخير أساس العلو ؛ فإن الجماعات تسير دائما في درج الرقي ، وتنتج دائما نحو المثل العليا الفاضلة فوق تحقق العدالة الاجتماعية على أكمل صورها .

وأنه بلا شك حيث جمع الدين ومبادئ الأخلاق يقل التناحر بين بني الإنسان ، وإذا كان التاريخ يحكي تناحرا بين الناس بسبب الدين ، فليس ذلك ناشئا عن الدين نفسه ، إنما هو ضلال الفهم . فقد يتحول الدين في نفوس بعض الذين لا يدركون حقائقه إلى معنى يشبه الجنسية والعنصرية . وفي هذا الحال لا يكون القتال والتناحر منبعثا من ذات الدين ، ولا من مبادئه ، بل من العنصرية لبست رداء الدين ، فتقاتلت باسم الدين ، والدين منها براء ، أو من خطأ الفهم للحقائق الدينية ، فيتحول في نفوس المنتحلين له إلى عصبية كعصبية النسب ويختفي في النفس معنى الخير ، وسمو الفضيلة ، وغير ذلك مما يختص به التدين ويعلو به عن التناحر إلى الأخوة الهادية الفاضلة .

٦ — من أجل هذا كله جعل الإسلام أساس الوحدة الجامعة هو الدين ، وجعل المسلمين جميعا أمة واحدة ، واتفق المسلمون من أقدم العصور إلى اليوم على أن الولاية الإسلامية واحدة لا تقبل التعدد ، وأنه حيث حل المسلم في أرض إسلامية فقد حل في أرضه وفي ولايته ، وأنه لا يسوغ للمسلم أن يبقى في ولاية قوم غير مسلمين باسم الجنسية أو العنصرية أو الإقليم ، وأن عليه أن يهاجر إلى أقرب قطر إسلامي يقيم فيه ، ولا يستظل براية غير إسلامية ، ولذا قال سبحانه وتعالى في محكم آياته : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم . قالوا كنا مستضعفين في الأرض . قالوا ألم تكن أرض الله واسعة ، فهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا . ومن يهاجر في سبيل

الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفورا رحيما .

فباب الهجرة مفتوح بمقتضى هذا النص لكل مسلم قادر يعيش مستضعفا تحت ولاية غير إسلامية ، وما من معذرة يعتذر بها أمام الله ، وأمام المسلمين ؛ حيث يجتمع بالمسلمين يقوى بهم ويعتز ويكون فيهم قوة تعمل وتثمر وتحمل الدمار .

٧ — هذه الحقائق المقررة تشير إلى معنى الاجتماع في الإسلام ، وأنه لا عصبية ولا عنصرية ، ولا جنسية ، ولا إقليمية فكل ذلك منازع غير إسلامية نهى الإسلام عنها ، واعتبرها نزعات جاهلية ، ومن سار في طريقها فقد رغب عن حكم الإسلام بحكم جاهلي (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) .

ولكن على أى شكل تكون الوحدة اليوم ؟ أتكون على الشكل الأول في صدر الإسلام ؟ أم تكون على شكل يلائم روح العصر مع تحقق معنى الوحدة على أكمل وجه . على معنى أننا إن أخذنا روح العصر ، ففي شكل الوحدة لا في جوهرها ، فلما نحن نحضون أحكام الإسلام لروح العصر ، ولكن الإسلام أمرنا بالقيام بحقائق اجتماعية مقررة ، وترك لنا أساليب تحقيقها نجتهد في تعرف أنجمعها وأقربها توصيلا لهذه الحقائق وتحقيقها ، فمن روح العصر نستتير الطريق الموصل وما يكون عليه شكل الوحدة ، ولا نمكن العصر من التحكم في حقيقة شرعية مقررة ثابتة .

٨ — وقبل أن نخوض في بيان شكل الوحدة في عصرنا نشير إلى شكل الوحدة في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم في عصر الخلفاء الراشدين ، ثم في عصر الدولتين الأموية والعباسية .

عندما تكونت للإسلام دولة ، وانتقل المسلمون في عصر الرسول من دور المستضعفين في الأرض إلى دور الاستقلال ، ووجود الكيان الإسلامي ؛ بقيام الدولة في يثرب بعد الهجرة النبوية . أخذ النبي يعمل على تكوين الوحدة الإسلامية بما يحقق مقاصد الإسلام ، وليضع بعمله الدعام الأولى التي تبني عليها وحدة المسلمين ، وابتدأ بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ليتمكن بذلك نحو الفروق الإقليمية والفروق العنصرية بشكل عملي ، وكان في إطار تلك الوحدة كما قلنا الحبشي والفارسي والعربي ، وكان من العرب القرشي والأوسي والحزرجي والغفاري ، وغير ذلك من القبائل التي كانت متناحرة في الجاهلية ، ويعلو بعضها على بعض بالعنصر أو الدم أو السلالة فكان الجميع

في تلك الوحدة على سواء ، ونادى رسول الله بنى هاشم أسرته قائلاً في قوة : « يا بنى هاشم لا يأتيني الناس بالأعمال وتأتوني بالأنساب » .

ولما صارت كلمة الله هي العليا في البلاد العربية كلها كانت الدولة الإسلامية مكونة من الأقاليم العربية كلها ، وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم عماله وولاته وقضاته .

ونهج الصديق خليفة رسول الله منهج النبي صلى الله عليه وسلم واقتدى به في حقيقة الحكم وأسلوبه ، فلما فتح الله على المسلمين في عهد الفاروق رضى الله عنه العراق وفارس والشام ومصر . حكم الجزيرة العربية بحكم النبي صلى الله عليه وسلم وأسلوبه ، وأرسل الولاة والقضاة إلى الأقاليم ، وكان حريصاً على أن يعين قضاء الأقاليم من قبله ، والولاة كذلك ، وأحياناً كان يجعل لهم سلطاناً كاملاً في ولايتهم في الإدارة وبيت المال ، وعينه النافذة المبصرة الرقابة تتبع أعمالهم ، وأحياناً كان يعين والي الإدارة ، كما يجعل ولاية بيت المال لوال من قبله أيضاً ، وفي الحالتين هو المسيطر مشرف ؛ يعزل عند مظنة الظلم ، ولا يسكت عن الشبهة في الظلم ، ولو اضطره الأمر أن يعزل كل يوم والياً ، لأنه يريد تحقيق العدل ، ويريد أن يشعر المحكومين بأن الحاكم لا يريد إلا العدل المطلق في كل صوره ، فليس الاستقرار بالعدل وحده ، بل بأن يشعر المحكومون بأن الحاكم لا يريد سواه ، وبأن تنفي كل شبهة للظلم ؛ لكيلا تنفذ إلى القلوب شيطان التمرد والعصيان .

ولما جاء عهد ذى النورين عثمان بن عفان قوى سلطان ولاية الأقاليم ، واتسعت ولايتهم ولم يحسوا بالسيطرة النفسية التي كانوا يحسون بها في عهد الفاروق ، خفت قوة المركزية ، وخف سلطان المدينة على الأقاليم ، ولما جاء عهد سيف الإسلام على بن أبي طالب رضى الله عنه أراد أن يعيدها عمرية ، ولكن لم يتم له ذلك ، لإلف الناس رفق أمير المؤمنين عثمان ، وللفتن التي قامت في عهده رضى الله عنه ، ولما ابتلاه الله من خروج الخارجين عليه .

٩ — هذا كله والإسلام غض ، وأحكامه قائمة مهيمنة ، فلما جاء عهد الأمويين ، وصدر الدولة العباسية كان لولاة الأقاليم سلطان كامل يكاد يكون مطلقاً إلا في تنفيذ رغبات الخليفة ، وسياسته ومنهاجه في الحكم ، ودعم الأسس التي قامت عليها دولته . وبذلك ابتدأت تأخذ الدولة الإسلامية شكل الجامعة الدولية ، فكان في مصر شبه دولة خاضعة ، وفي العراق كذلك ، ولكن الولاة يعينون من قبل الخليفة ويعزلهم

حيثما أراد ، وقد يبقى بعضهم طول حياته أو الشطر الأكبر منها على حسب ثقة الخليفة به .

وقد حدث في عهد المنصور أن قامت في الأندلس دولة إسلامية منفصلة تمام الانفصال ، أو معادية للدولة الإسلامية في بغداد ، وكان هذا أول تفكك للوحدة الإسلامية ، ووجود دولة إسلامية تعادى الأخرى ، وإن لم تقع بين الدولتين حروب ، بل كان يشعر أمير الأندلس أنه ليس خليفة ، وأن الخلافة في بغداد ، ولم يلقب بلقب الخليفة إلا بعد أن وهنت الخلافة ببغداد وصار سلطانها إسمياً حتى على العراق نفسه .

١٠ - ومن آخر عهد هارون الرشيد أخذت الولايات الإسلامية التي تخضع لحكم بغداد تأخذ وصف الدولة ؛ فصارت بلاد المغرب تحت سلطان الأغالبة ، وتوارثوا حكمها ، ثم نشأت الدولة الطولونية بمصر ، ثم الدولة الأخشيدية ، حتى استولى الفاطميون عليها ، وصاروا الدولة الثانية التي تناوى حكم العباسيين ، وصارت في البلاد الإسلامية ثلاث دول ؛ كل دولة منها تدعى الخلافة ، ورئيسها يقول إنه وحده أمير المؤمنين .

وكانت الولايات الإسلامية في الشرق قد صارت دولا تربطها ببغداد الرابطة الروحية . وعندئذ قامت الفتن ، وحلت وحدة الإسلام ، فقامت فتنة الزنوج ، ثم فتنة القرامطة ، وصار بأس المسلمين بينهم شديداً ؛ فطمع فيهم أعداؤهم ، فجاءهم الفرنجة من الغرب ، والتتار من الشرق ، وقد استطاعوا أن يردوا الفرنجة على أعقابهم ، وأن يدخلوا الإسلام في قلوب التتار .

ولما جاءت دولة آل عثمان ، واعتبرت حكمها خلافة ، وامرأؤها خلفاء كانت الوحدة النفسية قد انحلت ، فكان جسم الخلافة مكون من لبنات غير قوية ، ولم يكن الحكم في معناه إسلامياً بل كان الحكم هرقلياً . ولا يجتمع حكم محمد ، وحكم هرقل في إهاب واحد .

وقد نشأت دول إسلامية تناوى سلطان آل عثمان ، كما صارت الخلافة العثمانية هدفاً لمن يرشون للإسلام سهام الموت ، وأخذت الدولة المسيحية تقطع من جسم الخلافة العثمانية البلاد الإسلامية ، قطعة قطعة ، حتى لم يبق القرن العشرون حتى كانت البلاد الإسلامية تحت سلطان الحكم الأروبي أو في نفوذه ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

١١ - في هذه الأثناء ارتفع الصوت العبقري الحر السيد جمال الدين الأفغاني منادياً بالوحدة الإسلامية ، وطاف بالشعوب الإسلامية موقظاً الروح الإسلامى ومحيياً

موته في القلوب ؛ فأحيا الروح الإسلامية في فارس والهند ومصر التي وجد فيها أرضا خصبة وتلاميذ ذوي هممة على رأسهم الأستاذ الشيخ محمد عبده

ولقد كان السيد جمال الدين رضى الله عنه يعتقد أن الوحدة الإسلامية متحققة بالمشاعر والوجدان ، يحول بينها وبين الظهور فساد الحكم وطفیان الأمراء ، ويقول في ذلك بلل الله ثراه : (أما وعزة الحق وسر العدل لو ترك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه من عقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم لتعارفت أرواحهم واثلت آحادهم ، ولكن وأسفا تخللهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة في لقب أمير أو ملك ، ولو على قرية لا أمر له فيها ولا نهى . هؤلاء هم الذين حولوا أوجه المسلمين عما ولاهم الله ، وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم ؛ حتى تناكرت الوجوه ، وتباينت الرغائب) .
ثم ينادى الهمم ويبعث الأمل ويقول رضى الله عنه .

(أيا بقية الرجال ، ويا خلف الأبطال ، ويا نسل الأقيال ، هل ولى بكم الزمان ؟ هل مضى وقت التدارك ؟ هل آن أوان اليأس ؟ لا . لا . لا . معاذ الله أن ينقطع أمل الزمان منكم) .

١٢ — وقد أحدثت صيحات ذلك الإمام الجليل أثرين عظيمين : أما أحدهما فهو يقظة الأم المستعمرة التي تسيطر على المسلمين إلى محاربة تلك الدعوة التي لو تمت لأزالت سلطانهم ، ولو سيطرت على القلوب لأقضت مضاجعهم . ولذلك حاربت فكرة الوحدة الإسلامية بشتى الوسائل ؛ ما بين تعليمية وسياسية ، واجتمعت كلتها على وأدها في مهدها .

وأما الثانى فهو يقظة النفوس في المسلمين . وإن لم يجتمعوا تحت لواء واحد ووحدة جامعة ؛ فقد اجتمعوا على كراهية المستعمرين والأحاساس بأنهم أعداء الدين .
« للبحث بقية »

عينان ...

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في

سبيل الله » .

النشريع الجنائي الإسلامي

للأستاذ عبد القادر عودة

(٤)

٢٢ — الخطأ في الوطء : الخطأ إما خطأ في وطء مباح ، وإما خطأ في وطء محرم فالخطأ في الوطء المباح شبهة تدرأ الحد عند القائلين بالشبهة ، فمن زفت إليه غير زوجته وقيل هذه زوجتك فوطئها يعتقدونها زوجته فلا حد عليه باتفاق ، وإن لم يُقل له هذه زوجتك ، أو وجد على فراشه امرأة ظنها امرأته فوطئها ، أو دعا زوجته فجاءته غيرها فظنها المدعوة فوطئها ؛ فلا حد عليه عند مالك والشافعي وأحمد والظاهرية والزيدية . وحجتهم أنه وطء اعتقد الفاعل إباحته بما يقدر فيه مثله ، وأنه أشبه بوطء من زفت إليه غير زوجته ، ولكن أبا حنيفة يرى الحد على من وجد امرأة على فراشه فوطئها ، لأن المسقط هو شبهة الحل ولا شبهة هنا أصلاً سوى أن وجدها على فراشه ، وبمجرد وجود امرأة على فراشه لا يكون دليل الحل ليستند الظن إليه . وهذا لأنه قد ينم على الفراش غير الزوجة من صديقاتها وقريباتها ، فلم يستند الظن إلى ما يصلح دليل حل ، وكذلك الحكم إذا كان أعمى إلا إذا دعاها فأجابته أجنبية وقالت أنا زوجتك ، وهذا إذا لم تطل الصعبة ، وتشابهت النغمات ولم يستطع التمييز .

أما الخطأ في الوطء المحرم فليس شبهة باتفاق ، فمن دعا محرمة عليه فأجابته غيرها فوطئها يظنها المدعوة فعليه الحد ، فإن دعا محرمة عليه فأجابته زوجته فوطئها يظنها الأجنبية التي دعاها فلا حد عليه ؛ لانتفاء حرمة الفرج لعينه . وإن أثم باعتبار ظنه (١) .

٢٣ — الرضاء بالوطء : والرضاء بالوطء لا يعتبر شبهة باتفاق ، فمن وطئ امرأة أجنبية أباحت نفسها له فهو زان ، ولو كان ذلك بإذن ولها أو زوجها ، لأن الزنا لا يستباح بالبذل والإباحة ، وليس لأحد أن يحل ما حرم الله فإن أحلت امرأة نفسها فأحلالها نفسها باطل وفعلها زنا محض (٢) .

٢٤ — الزواج اللاحق : والزواج اللاحق بالمزني بها يعتبر شبهة تدرأ الحد في رواية أبي يوسف عن أبي حنيفة ؛ فمن زنا بامرأة ثم تزوجها لا يحد ؛ لأن المرأة تصير

(١) شرح الزرقاني ثامن ص ٧٨ -- شرح فتح القدير رابع ص ١٤٧ — نهاية المحتاج ج ٧ ص ٤٠٤ — المغني ج ١٠ ص ١٥٥ — المحلى ج ١١ ص ٢٤٦ — شرح الأزهري ج ٤ ص ٣٤٨ .

(٢) شرح الزرقاني ج ٨ ص ٨٠ — نهاية المحتاج ج ٧ ص ٤٠٦ — المغني ج ١٠ ص ١٥٦ — المحلى ج ١١ ص ٢٤٦ .

مملوكة للزوج بالنكاح فى حق الاستمتاع فحصل الاستيفاء من محل مملوك فيصير شبهة تدرأ الحد .

وفى رواية الحسن ومحمد أن الزوج العارض بعد الزنا لا يعتبر شبهة ؛ لأن الوطء وقع زنا محضاً لمصادفته محلاً غير مملوك للواطئ ، ولأن الزوج ليس له أثر رجعى فلا يمتد أثره لوقت الوطء .

والرواية الأخيرة تنفق مع ما يراه جمهور الفقهاء ؛ فهم يرون أن من زنا بامرأة ثم تزوجها لم يسقط الحد بذلك عنه ؛ لأن الحد قد وجب بالزنا السابق فلا يسقطه الزواج اللاحق (١) .

٢٥ — وطء من وجب عليها القصاص : ومن وجب له القصاص على امرأة فوطئها وجب عليه الحد ، ولا يعتبر استحقاقه القصاص عليها شبهة تدرأ الحد لأن حق القصاص إذا أباح له قتلها فلا يبيح له فرجها أو الاستمتاع بها (٢) .

٢٦ — العجز عن ادعاء الشبهة : ويرى أبو حنيفة أن عجز الجانى عن ادعاء الشبهة يعتبر شبهة دارئة للحد ؛ فالزانى الأخرس والزانية الحرساء لا يجدان ولو ثبت الزنا ضدهما بشهادة الشهود ؛ لأنهما يعجزان عن ادعاء الشبهة ، ومن المحتمل أن يدعيها لو استطاعا النطق ، وكذلك الشأن فى المجنون الذى زنا حال إفاقته ، بل يذهب أبو حنيفة إلى أن الأخرس لا يجد بإقراره إذا أقر كتابة أو إشارة ؛ لأن الإقرار المعتبر عنده هو الإقرار بالخطاب والعبارة دون الكتاب والإشارة ، فلو كتب الأخرس الإقرار فى كتاب أو أشار إليه إشارة معلومة لا حد عليه ؛ لأن الشرع علق وجوب الحد على البيان المتناهى ، والبيان لا يتناهى إلا بالصريح وهو الخطاب والعبارة ولا يتناهى بالكتابة والإشارة (٣) .

ويرى الزيدون ما يراه أبو حنيفة من أن الحرس والجنون شبهة تدرأ الحد ولكنهم يرون أن إقرار الأخرس صحيح إذا فهمت إشارته أو كانت إقراره كتابة (٤) .

ويرى مالك والشافعى وأحمد أن عجز الجانى عن ادعاء الشبهة لا يعتبر شبهة ،

(١) بدائع الصنائع ج ٧ ص ٦٢ — شرح فتح القدير ج ٤ ص ١٥٩ ، ١٦٠ — المغنى

ج ١٠ ص ١٩٤ — المحلى ج ١١ ص ٢٥٢ .

(٢) المغنى ج ١٠ ص ١٩٥ .

(٣) بدائع الصنائع ج ٧ ص ٥٠ وشرح فتح القدير ج ٤ ص ١١٧ .

(٤) شرح الأزهار ج ٤ ص ١٥٩ ، ٣٥٠ .

ويقولون بحد الأخرس والمجنون إذا ثبت زناه بالبينة ، كما يقبلون إقرار الأخرس بالكتابة وإقراره بالإشارة كلما أمكن فهم إشارته دون شك فيها^(١) .

ويرى الظاهريون أنه إذا كانت البينة فلا معنى للإنكار ولا للإقرار^(٢) وهم فوق هذا لا يعترفون بالشبهة ، ولا يرون درء الحدود بالشبهات ، ومقتضى هذين المبدئين أن عجز الجاني عن ادعاء الشبهة لا أثر له على الحد .

٢٧ — إنكار أحد الزانين : ويرى أبو حنيفة أن إنكار أحد الزانين يعتبر شبهة إذا أقر الآخر ولم يكن دليل غير الإقرار ، فلا يعاقب المنكر لأن الإقرار حجة قاصرة على المقر ، ولا يحد المقر لأننا صدقنا المنكر في إنكاره فصار المقر محكوماً بكذبه ، وتعليل ذلك أن الحد انتفى في حق المنكر بدليل موجب للنفي عنه فأورث شبهة الانتفاء في حق المقر ؛ لأن الزنا فعل واحد يتم بهما فإن تمكنت فيه شبهة نفذت إلى طرفيه . وهذا لأنه ما أقر بالزنا مطلقاً ، وإنما أقر بالزنا بفلانة وقد درأ الشرع عنها وهو عين ما أقر به فيندريء عنه ضرورة .

ولكن أبا يوسف ومحمد يريان ما يراه مالك والشافعي وأحمد والزيديون من أن المقر يحد بإقراره ولا يؤثر على عقوبته إنكار الطرف الآخر ؛ لأن الإقرار حجة في حق المقر . وعدم ثبوت الزنا في حق غير المقر لا يورث شبهة العدم في حق المقر .

أما الظاهريون فعندهم أن إنكار أحد الزانين لا يؤثر على عقوبة المقر ؛ لأنهم لا يسقطون الحد بالشبهة ، ولأن القاعدة عندهم أن من أقر إقراراً تاماً بحق في مال أو دم أو بشرة ، وكان عاقلاً بالغاً غير مكره ، ولم يصل إقراره بما يفسده فقد لزمه إقراره ولا رجوع له بعد ذلك ، فإن رجع لم ينتفع برجوعه ، وقد لزمه ما أقر به على نفسه من دم أو حد أو مال^(٣) .

٢٨ — إدعاء أحد الطرفين الزوجية : وإذا أقر أحد الطرفين بالزنا فادعى الطرف الآخر الزوجية ؛ فيرى أبو حنيفة وأحمد أن لا يحد واحد منهما ؛ لأن دعوى النكاح تحتل الصدق . وبتقدير صدق مدعى النكاح منهما يكون ادعاء النكاح شبهة ويسقط الحد لاحتمال صدق دعوى النكاح .

(١) نهاية المحتاج ج ٧ ص ٤١٠ — تبصرة المحاكم ج ٢ ص ٧١ وما بعدها — المغني ج ١٠ ص ١٧١ .

(٢) المحلى ج ٨ ص ٢٥٠ .

(٣) تبصرة المحاكم ج ٢ ص ٣٨ — شرح فتح القدير ج ٤ ص ١٢٠ ، ١٥٨ — أسنى المطالب ج ٤ ص ٣٢ — المغني ج ١٠ ص ١٦٨ — المحلى ج ٨ ص ٢٥٠ والمحلى ج ١١ ص ١٥٣ — شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٤٨ وما بعدها .

ويرى مالك والشافعي حد المقرم لم يثبت قيام الزوجية. وأصول الظاهريين والزبيديين تقتضي الأخذ بهذا الرأي^(١).

وإذا ضبط شخص يظاً امرأة قاذى الرجل والمرأة الزوجية ؛ فالقول قولها على ما يرى جمهور الفقهاء إلا أن مالكا يرى أن عليهما أن يثبتا الزوجية .

وإذا شهد الشهود بزناهما فلا يسقط ادعاء الزوجية الحد إلا إذا أقاما البينة على النكاح ؛ لأن الشهادة بالزنا تنفى كونهما زوجين فلا تبطل بمجرد قولهما . ويحتمل أن يسقط الحد إذا لم يعلم كونها أجنبية عنه ؛ لأن ما ادعياء محتمل فيكون ذلك شبهة^(٢)

ويرى ابن حزم التفريق بين ما إذا كانا غريبين أو معروفين ؛ فإن كانا غريبين أو لا يعرفان فلا شيء عليهما ، ولا يعرض لهما ولو قامت البينة بالوطء ، ولا يكلفان إقامة البينة على النكاح ، وإن كانت المرأة معروفة ومعروف أن لا زوج لها فإن أمكن ما يقول الواطئ فلا شيء عليهما ؛ لأن أصل دمائهما وأبشارهما على التحريم بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام » فلا يجوز إباحة ما حرم الله إلا يبين لاشك فيه ، وإن كان كذبهما متيقنا فالحد واجب عليهما^(٣).

٢٩ — بقاء البكارة : وعدم زوال البكارة يعتبر شبهة في حق الشهود عليها بالزنا عند أبي حنيفة والشافعي وأحمد والشيعة الزيدية ؛ فإذا شهد أربعة على امرأة بالزنا ، وشهد ثقات من النساء بأنها عذراء فلا حد عليها للشبهة ولا حد على الشهود .

ولكن مالكا يرى الحد على المرأة ؛ لأن المثبت مقدم عنده على النافي ، ولأن من المحتمل أن يحصل الوطء دون أن يترتب عليه إزالة البكارة . ومن أصحاب هذا الرأي زفر صاحب أبي حنيفة . وهو رأى الظاهريين . ولكن ابن حزم من فقهاء المذهب الظاهري يرى أن الحكم يختلف بحسب ما يقرر النساء على صفة عذرتها فإن قلن إنها عذرة يبطلها إيلاج الحشفة ولا بد ، وأنه صفاق عند باب الفرج فقد أيقنا بكذب الشهود وأنهم وهموا ؛ فلا يحل إنفاذ الحكم بشهادتهم ، وإن قلن إنها عذرة واغلة في داخل الفرج لا يبطلها إيلاج الحشفة فقد أمكن صدق الشهود إذ بإيلاج الحشفة يجب الحد فيقام الحد عليها لأنه لم يُتيقن كذب الشهود ولا وهمهم^(٤).

(١) شرح فتح القدير ج ٤ ص ١٥٨ — المغنى ج ١٠ ص ١٥٨ ، ١٥٩ — المدونة ج ٣

ص ٤١ — أسنى المطالب ج ٤ ص ١٣٤ .

(٢) شرح الزرقاني ج ٨ ص ٨٥ — المغنى ج ١٠ ص ١٦٢ .

(٣) المحلى ج ١١ ص ٢٤٢ — ٢٤٤

(٤) شرح الزرقاني ج ٨ ص ٨١ — حاشية ابن عابدين ج ٣ ص ٢٢٠ — أسنى المطالب

ج ٤ ص ١٣٢ — المغنى عاشر ص ١٨٩ — المحلى ج ١١ ص ٢٦٣ — شرح الأزهري

ج ٤ ص ٣٥٠ .

٣٠ — الوطء بالإكراه : ومن المتفق عليه أنه لا حد على مكرهة على زنا لقوله تعالى : « وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه » وقوله : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « عفى لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ولأن الإكراه يعتبر شبهة عند القائلين بالشبهة ، والحدود تدرأ بالشبهات ، ومن المتفق عليه أنه لا فرق بين الإكراه بالإلجاء وهو أن يغلبها على نفسها ، وبين الإكراه بالتهديد . فقد استكرهت امرأة على عهد الرسول فدرأ عنها الحد ، وأتى عمر بإماء من إماء الإمارة استكرههن غلمان من غلمان الإمارة فضرب الغلمان ولم يضرب الإماء ، كما جاءته امرأة استسقت راعياً فأبى أن يسقيها إلا أن تمكنه من نفسها ففعلت . فقال لعل ما ترى فيها . قال إنها مضطرة . فأعطاها شيئاً وتركها . وإذا أكره الرجل على الزنا فعليه الحد وهو الرأي المرجوح في مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد والشيعة الزيدية ، وحجة أصحاب هذا الرأي أن المرأة تُكره لأن وظيفتها التمكنين أما الرجل فلا يكره مادام ينتشر ؛ لأن الانتشار دليل الطوعية . والرأي الراجح في هذه المذاهب جميعاً أنه لا حد على الرجل إذا أكره لأن الإكراه يتساوى أمامه الرجل والمرأة ؛ فإذا لم يجب عليها الحد لم يجب عليه ، ولأن الانتشار قد يكون طبعاً وهو دليل على الفجولية أكثر مما هو دليل على الطوعية ، ولأن القول بأن التخويف ينافي الانتشار غير صحيح ؛ لأن المكروه يخوف عند ترك الفعل لا عند إتيانه ، والفعل في ذاته لا يخاف منه . فضلاً عن ذلك فإن الإكراه شبهة والحدود تدرأ بالشبهات (١) .

ويرى الظاهريون أن لا حد على مكرهة أو مكروه ؛ فلوأُمسكت امرأة حتى زنى بها أو أمسك رجل فأدخل إحليله في فرج امرأة فلا شيء عليه ولا عليها سواء انتشر أم لم ينتشر . أمي أو لم يمين . أنزلت هي أو لم تنزل ؛ لأنهما لم يفعلوا شيئاً أصلاً ، والانتشار والإمضاء فعل الطبيعة الذي خلقه الله تعالى في المراء أحب أم كره لا اختيار له في ذلك (٢) .

وإذا مكنت المرأة مكرها من نفسها فعلتها الحد دونه لأنها ليست مكرهة ، ولو أن الرجل معفى من العقاب ؛ لأن فعلها زنا ، وليس لها أن تستفيد من ظرف الرجل ، وهذا مسلم به في كل المذاهب .

(١) شرح الزرقاني ج ٨ ص ٨٠ — شرح فتح القدير ج ٤ ص ١٥٧ ، ١٦٦ — أسنى المطالب ج ٤ ص ١٢٧ — المهذب ج ٢ ص ٢٨٤ — المغني ج ١٠ ص ١٥٨ وما بعدها — شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٤٨ .
(٢) المحلى ج ٨ ص ٣٣١ .

في الفقه الإسلامي

العقود والشروط بين التقييد والحرية

للدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ الشريعة الإسلامية المساعد بكلية الحقوق

١ — هذا موضوع جدير بالبحث — فيما أعتقد — لصلته الوثيقة بالحياة العملية التي نعيشها اليوم ، هذه الحياة التي تقوم دائماً على تبادل الأموال والمنافع ؛ وسبيل هذا إبرام الناس ما يرون من عقود تزيد وتختلف باختلاف الأيام ، وفي هذه العقود يضعون من الشروط ما يرون أنه يحقق لكل من المتعاقدين ما يحرص عليه من غرض ومنفعة .
ومما يجعل لهذا الموضوع خطراً كبيراً ؛ أن الفقه الوضعي المدني يرى أن العقد شريعة المتعاقدين ، فلكل من طرفيه أن يشترط ما شاء مادام يرضى به الطرف الآخر ؛ وإذا ، فكل عقد أو شرط يعتبر صحيحاً ؛ مادام قد صدر عن إرادة صاحبه الحرة ، ورضيه الذي تعاقد معه ، ولو كان هذا الشرط لا يحقق المساواة في العُرم والعُثم بين المتعاقدين .

٢ — إن الفقه الإسلامي ينظر نظرة أخرى إلى هذا الموضوع ؛ موضوع مدى حرية المتعاقدين في إنشاء ما يشاءان من عقود ، وفي اشتراط ما يريان من شروط ؛ حتى لا يكون هناك بغى ولا عدوان ولا خروج عن الحدود التي وضعتها — لحير الناس جميعاً — شريعة الله أحكم الحاكمين . إن هذه الحدود ترينا مقدار ما في العقود والشروط التي تعرفها الأسواق المصرية هذه الأيام ، ومنها سوق القطن ، من بُعد عن الشريعة الحقة ، وعن المصلحة العامة ، ومنها مصلحة المتعاقدين أنفسهم ، حتى وصل الأمر إلى أن وزيراً من وزراء المالية يتحدث عن سوق القطن فيقول : يجب أن نبتعد بالسوق عن أن تكون نادياً لليسر أو القمار .

على أن علماء الفقه الإسلامي ليسوا — أنفسهم — على اتفاق في هذه المسألة ، نغني مدى حرية المتعاقدين فيما يعملون من عقود ويشرطون من شروط . وهذا الاختلاف الذي نراه بينهم يرجع إلى مبدئين ، تمسك كل جماعة منهم بواحد منهما ، وهما :
(١) الأصل في العقود وما يتصل بها من شروط ؛ هو المنع والحظر ، فلا يجوز منها إلا ما يجيزه الشارع .

(ب) الأصل في ذلك هو الإباحة ، فكل ما لم يمنعه الشارع منها يكون جائزاً .
إلى كل من هذين المبدئين ، أو الأصلين ، ذهب طائفة من الفقهاء المسلمين ،
فكان ما نعرف من آراء ومذاهب مختلفة في الفقه في هذه المسألة ، وذلك بين أهل
الظاهر والأحناف والشافعية والمالكية والحنابلة .

٣ — تمسك أهل الظاهر: أتباع داود بن علي المتوفى عام ٢٧٠ هـ ، ثم علي بن أحمد
ابن سعيد بن حزم المتوفى عام ٤٥٦ هـ ، بالأصل الأول لأنهم أهل نصوص لا قياس ،
فضيقوا على الناس كل التضييق ، وهم يستدلون لمذهبهم بما روته عائشة رضي الله عنها من
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » ،
ومن ثم نرى ابن حزم بعد أن اعتمد هذا الحديث يقول : (فصيح بهذا النص
بطلان كل عقد عقده الإنسان والتزمه ؛ إلا ما صح أن يكون عقداً جاء النص أو الإجماع
بإلزامه باسمه ، أو بإباحة التزامه بعينه ^(١)) كما يستدلون بحديث آخر جاء في الصحيحين
عن جارية اشترتها عائشة أم المؤمنين لتعتقها ، فشرط أهلها أن يكون لهم ولاؤها ،
فذكرت ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم فقال : « ابتاعني فأعتقني ، فإنما الولاء لمن أعتق »
(أى ليس عليك الوفاء بهذا الشرط لمخالفته للشرعية) ، ثم قام في الناس وقال : « ما بال
أناس يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله ! من اشترط شرطاً ليس في كتاب الله
عز وجل فليس له ، وإن اشترط مائة شرط الله أحق وأوثق ^(٢) » .

وإن كان مجرد شرط من الشروط في عقد من العقود يكون باطلاً ، لأنه لم يرد به
نص أو لم يثبت بإجماع من المسلمين ؛ فبالأولى يكون العقد الذي هذه صفته باطلاً ليس
لأحد أن يلتزم الوفاء به .

وهؤلاء الذين ذهبوا هذا المذهب الضيق ، يبررون ما ذهبوا إليه بأن الشريعة التي
تصلح لأن تقوم عليها أمة يجب أن تتناول بالتنظيم شئون الأمة جميعاً ، وبخاصة ما كان
منها متعلقاً بالعقود ، وبهذا تقوم المعاملات المالية وغيرها بين الناس على أساس من
العدل والتعادل بين المتعاقدين ، وهذا ما لا يكون إذا تركت لهم الحرية في عقد
ما يريدون من عقود واشتراط ما يشاءون من شروط ، وإن لم يحى بها نص أو إجماع .
٤ — وإذا كان هذا هو مذهب الظاهرية والأصل الذي انبنى عليه ، فإن كثيراً

(١) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ، مطبعة السعادة سنة ١٣٤٥ ، ج ٥ : ٣٢

(٢) هذا الحديث روى بروايات مختلفة في بعض الألفاظ ، وقد ذكره ابن تيمية في فتاواه

من المسائل عند أبي حنيفة والشافعي وبعض أصحاب مالك وأحمد تنبني على هذا الأصل كما يقول تقي الدين بن تيمية المتوفى عام ٧٢٨ هـ؛ مادام بعضهم يعلل بطلان عقد من العقود أو فساد شرط من الشروط بكونه لم يرد به أثر أو قياس . كما يصححون بعض الشروط لورود السنة أو الأثر بها وإن كانت مخالفة لمقتضى العقد والغرض منه (١) .

على أنه مهما كان ابتداء بعض مسائل الفقهاء — غير أهل الظاهر — على هذا الأصل ، فإنهم يوسعون جداً في العقود والشروط حين قالوا بالقياس والآثار ، وبذلك لم يذهبوا إلى ما ذهب إليه أهل الظاهر من التضييق إلى درجة لا يقبلها العقل ولا تقوم عليها المعاملات والعلاقات بين الناس ، هذه المعاملات التي تكثر وتتجدد باختلاف الزمان والمكان .

هـ — أما خصوم أهل الظاهر ، وهم جمهرة الفقهاء وبخاصة الحنابلة وابن تيمية بصفة أخص ، فقد تمسكوا بإباحة كل عقد أو شرط لم يحرمه الشارع ، لأن الأصل في ذلك الإباحة ، مستدلين بقوله تعالى في مفتتح سورة المائدة: « يا أيها الذين آمنوا آمنوا أو فوا بالعقود » وبقوله تعالى في سورة النساء: « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » . فهذه الآية الثانية لم تشترط لصحة العقد ، الذي به ينتقل ما يملك الواحد من مال أو منفعة إلى الآخر ، إلا أن يكون صادراً عن رضى واختيار ؛ بينما أوجبت الآية الأولى الوفاء بكل عقد دون استثناء متى استوفى شرط الرضا ، ولا يكون الوفاء بالعقد واجباً شرعاً إلا إذا كان الشرع يعتبره صحيحاً . وإذاً ، يكون تحريم بعض ما يتعامل الناس به من عقود وشروط ، دفعاً للحاجة وتحقيقاً للمصلحة ، بغير دليل شرعى ، تحريماً لما لم يحرمه الله وذلك ما لا يجوز .

وفضلاً عن هذا الاستدلال العقلى الذى يتقدم به أصحاب هذا المذهب ، نراهم يستدلون أيضاً من باب النقل — بعد الآيتين السابقتين — بأحاديث وردت عن الرسول صلى الله عليه وسلم . ومن هذه الأحاديث قوله : « الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرّم حلالاً أو أحل حراماً ، والمسلمون على شروطهم إلا شرطاً حرّم حلالاً أو أحل حراماً ، وقوله : « الناس على شروطهم ما وافقت الحق » . وهذا المعنى ، كما يقول ابن تيمية ، هو الذى يشهد له الكتاب وسنة الرسول (٢) .

٦ — على أن هناك فرقاً واضحاً يجب ملاحظته بين الأعمال التي هي عادات ومنها

(١) فتاوى ابن تيمية ، ٣ : ٣٢٢ — ٣٢٤

(٢) فتاوى ابن تيمية ، ٣ : ٣٢٣

العقود ، وبين الأخرى التي هي عبادات كالصلاة والصوم ، إذ لا يشترط نص الشارع في الأولى ويشترط في الثانية . وفي ذلك نجد الإمام أبا إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي المتوفى عام ٧٩٠ هـ يقول ما نصه ^(١) : « إن الأصل في العادات الالتفات إلى المعاني لأمر : أولها الاستقرار ، فإننا وجدنا الشارع قاصداً لمصالح العباد ، والأحكام العادية تدور معه حيث دار ؛ فترى الشيء الواحد يمنع في حال لا تكون فيه مصلحة ، فإذا كان فيه مصلحة جاز .. فبيع الرطب باليابس يمنع حيث يكون مجرد غررٍ ورباً من غير مصلحة ، ويجوز إذا كان فيه مصلحة راجحة . ولم نجد هذا في باب العبادات مفهوماً ، كما فهمناه في العادات .. والثاني ، أن الشارع توسع في بيان العلة والحكم في تشريع باب العادات كما تقدم تمثله ، وأكثر ما علل فيها بالمناسب الذي إذا عرض على العقول تلقته بالقبول ؛ ففهمنا من ذلك أن الشارع قصد فيها اتباع المعاني لا الوقوف على النصوص ، بخلاف باب العبادات فإن المفهوم فيه خلاف ذلك . وقد توسع في هذا القسم مالك رحمه الله ، حتى قال فيه بقاعدة المصالح المرسله ، وقال فيه بالاستحسان ، وتقل عنه أنه قال : إنه تسعة أعشار العلم .. والثالث ، أن الالتفات للمعاني قد كان معلوماً في الفترات (أي التي خلت من الرسل والتشريعات الإلهية) ، واعتمد عليه العقلاء حتى جرت بذلك مصالحهم .. فدل هذا على أن المشروعات في هذا الباب جاءت متممة لجريان التفاصيل في العادات ، على أصولها المعهودات . ومن ههنا أقرت هذه الشريعة جملة من الأحكام التي جرت في الجاهلية ، كالهبة والقسامة . والقراض .. وأشباه ذلك ، مما كان عند أهل الجاهلية محموداً » .

٧ - هذا ، وإن كان لابد من أن نقول كلمة في هذين المذهبين المتعارضين ؛ مذهب الثائنين لكل عقد وشرط لم يرد الشرع بجوازه ، ومذهب الميحيين لكل مالم يحرمه الشرع من ذلك ؛ فإننا نرى أن الحق أن نأخذ بالمذهب الأول في عقود الزواج ، وبالمذهب الثاني في العقود المالية . وذلك حرصاً على ما للزواج من حرمة وقداسة ، ولما يطلب له من تكوين أسرة تتطلب الاستقرار ، ومخافة أن تذهب بهذه الصلة الأهواء حين تتحكم في الشروط . على أنه ينبغي أن نفهم هنا أن الشرط الذي يتفق ومصلحة الزوج أو الزوجة ويدل القياس على صحته ، وإن لم يرد نصاً في الكتاب أو السنة لا يعتبر شرطاً مخالفاً لواحد من هذين المصدرين الكريمين المقدسين ، وإذا يكون صحيحاً . أو بعبارة أخرى ، ينبغي أن نفهم هنا بأن الشرط الذي ليس في كتاب الله أو سنة

رسوله ، هو الشرط الذي لا يخالف واحدا منهما . وبذلك الفهم ، نكون قد وسعنا بحق لبعض الشروط التي يشرطها الزوج أو الزوجة ، وتكون موافقة لمقتضى العقد وفيها مصلحة حقة .

أما في العقود المالية ، فليس الأمر كذلك بحال ، وبخاصة ولكل عصر وبلد عقودهم وما تعارفه فيها من شروط ، فيكون من الضيق والتعسير على الناس أن نطلب لكل عقد أو شرط نصا شرعيا يجيزه ؛ بل لنا أن نكتفي في هذه العقود بصورها عن رضا واختيار ، وبأنها لا تخالف شيئا من نصوص القرآن والسنة الصحيحة . وإلا ، لانشلت حركة التجارة التي اتسعت في عقودها وشروطها إلى حد كبير لم يعرفه الفقهاء ، ولوقع الناس من ذلك في حرج شديد ، والله يقول : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » على أنه يجب أن نلاحظ تماما وجوب ألا يكون في شيء من العقود المالية وما يتعلق بها من شروط ، ما يخالف بعض ما جاء به القرآن وسنة الرسول ، وبذلك يعرف من يريد الاستقصاء والتفصيل بطلان كثير من عقود اليوم ، وبخاصة العقود التي تجرى في سوق القطن ، ونتيجة هذا ما نشاهده من انهيار أناس وارتفاع آخرين في هذه السوق التي أصبحت أشبه شيء بناد للميسر أو القمار .

٨ — وبعد هذا الكلام بصفة عامة على هذين المبدأين العامين : مبدأ المنع الذي أخذ به الظاهرية إلى أبعد الحدود ، ومبدأ ، الإباحة الذي اختاره الإمام ابن تيمية وجرى فيه إلى أبعد الحدود كذلك . نجىء إلى شيء من التفصيل فيما يختص بالفريق الآخر المخالف لأهل الظاهر وهذا معناه الكلام على مذهب الأحناف الذي يقرب منه مذهب الشافعية ، ثم مذهب الحنابلة الذي يقرب منه كذلك مذهب المالكية ، وأخيراً مذهب ابن تيمية وبه يتم البحث ، وموعدنا بذلك كله الكلمة الآتية إن شاء الله تعالى ؟

مراسلة الله

كان أبو علي الدقاق يقول : « إذا بكى المذنب فقد راسل الله » .

استغلال الأرض في الإسلام

للأستاذ محمود أبو السعود

مستشار بنك الدولة في باكستان

(٣)

الأحكام الفقهية لاستغلال الأرض :

١ — لا شك أن الإسلام يحض على استغلال الأرض بصفاتها موهبة من مواهب الطبيعة . والمعروف أن الأرض نعمة من نعم الله ، وشكر النعمة استغلالها فيما يفيد ، وهو واجب على كل مسلم . وقد جاء في الحديث من طريق البخارى (ج ٣ — ص ٢٠٨) حدثنا قتبية (بن سعيد) حدثنا أبو عوانة عن قتادة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعاً فيأكل منه طائر أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة » . ولقد ذكر بعض المحدثين كراهة انقطاع المسلم للزرع لما يجلب ذلك من حرص قد يخلف الذل والاستسلام ، كما روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لقيس بن بعوث المزاري : « لا آذن لك بالزرع إلا أن تقر بالذل وأحمو اسمك من العطاء » وأنه رضى الله عنه كتب إلى أهل الشام : « من زرع واتبع أذئاب البقر ورضى بذلك جعلت عليه الجزية ^(١) » ولا شك أن هذه روايات ضعيفة لا يعتد بها ، ولا يعدو التحريم أو الكراهة أن تختص بفلاحة الأرض التي يشغل الزارع بها عن الجهاد في سبيل الله . ولا مشاحة في أن كل ما يشغل المرء عن مثل هذا الواجب القدسى مكروه إن لم يكن مجلباً لإثم عظيم .

٢ — إن كان الإسلام قد شجع على استثمار الأرض وزراعتها فما هي الأشكال التي أقرها الدين الخفيف ، وما الحكمة في إقرار حالات من حالات الاستثمار وتحريم حالات أخرى ؟ لم يرد في القرآن نص بهذا الخصوص ، وإنما وردت أحاديث صحيحة متفق عليها ، كما تواترت رواية عن عمل قام به رسول الله صلوات الله عليه . هذه الأحاديث هي منارنا في البحث فلنستعرضها :

(١) عن الأوزاعي عن عطاء عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال : « من كانت له أرض فليزرعها أو لينحها فإن أبي فليمسك أرضه »^(١).
ومن طريق رافع بن خديج حدثنا عن عم له بدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله ،
ومن طريق البخارى حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن أيوب السخيتانى
عن نافع عن ابن عمر أنه كان يكرى مزارعه قال : فذهب إلى رافع بن خديج وذهب
معه فسأله ؛ فقال رافع : نهى رسول الله (ص) عن كراء الأرض^(٢). ومن طريق مسلم
عن محمد بن حاتم عن معلى بن منصور الرازى عن خالد — هو الحذاء — عن الشيبانى
— هو أبو اسحق — عن بكير بن الأخنس عن عطاء عن جابر بن عبد الله قال :
« نهى رسول الله (ص) أن يؤخذ للأرض أجر أو حظ »^(٣). ومن طريق مسلم
عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (ص) « من كانت له أرض فليزرعها أو لينحها
أخاه فإن أبي فليمسك أرضه »^(٤). ومن طريق ابن وهب عن أبي سعيد الخدرى
أنه قال « نهى رسول الله (ص) عن المزابنة والمحاولة . قال والمحاولة كراء الأرض »^(٥)
وعن نافع مولى ابن عمر أنه سمع ابن عمر يقول : « كنا نكرى أرضنا ثم تركنا ذلك حين
سمعنا حديث رافع بن خديج^(٦) » . ومن طريق أبي داود السجستانى قرأت على سعيد
ابن يعقوب الطالقانى قلت : أحدثكم عبد الله بن المبارك عن سعيد أبي شجاع ؟ حدثنى عيسى
ابن سهل بن رافع قال « إني يتييم في حجر جدى رافع بن خديج وحجبت معه فجاء
أخى عمران بن سهل قال : أكرينا أرضنا فلانة بمائتى درهم . فقال دعه فإن النبي (ص)
نهى عن كراء الأرض^(٧) » . وعن رافع بن خديج أيضاً قال : « كنا من أكثر الأنصار
حقلاً فكنا نكرى الأرض على أن لنا هذه ولهم هذه فربما أخرجت هذه ولم تخرج هذه
فنهانا (أى المصطفى عليه السلام) عن ذلك فأما بالذهب والورق فلم ينهنا » — متفق
عليه — وفى لفظ « فأما بشيء معلوم مضمون فلا بأس »^(٨) .

هذا مجمل ما ورد من الأحاديث بخصوص كراء الأرض . وواضح منها أن التواتر
فى إيراد حديث رافع يسند التواتر فى حديث جابر . وقد جاء فى كتب الحديث
الصحيحة ما لا يدع مجالاً للشك فى أنها جميعاً تحرم كراء الأرض لا بذهب ولا بفضة

(٢) المصدر السابق .

(١) صحيح البخارى ج ٣ ص ٢١٧

(٤) المصدر السابق ص ٤٥٣ .

(٣) صحيح مسلم ج ١ ص ٤٥٢ .

(٦) المصدر السابق .

(٥) المصدر السابق .

(٨) المغنى والشرح الكبير ج ٥ — ص ٨٤ .

(٧) سنن أبي داود وسنن النسائى .

ولا بغير ذلك . وقد فصل ابن حزم في المحلى هذا البحث وأورد كثيراً من الروايات التي تبطل ما أسند إلى رافع بن خديج قوله : « فأما بالذهب والورق فلم ينهنا » . أما ابن قدامة في المغنى فقد احتج بأن الحديث الأخير يجعل أحاديث رافع كلها مضطربة ويسقطها . وهو بهذا يبيح السكراء والمزارعة في شتى صورها ؛ على أن يكون السكراء إما بالذهب أو الفضة . أما صاحب فتح القدير فإنه يرى رأى ابن حزم في حرمة كراء الأرض ويرجح صحة أحاديث رافع في النهي .

(ب) أما الواقعة الوحيدة التي حدثت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي ما ورد عن طريق البخارى عن نافع عن عبد الله بن عمر قال : أعطى النبي (ص) خير اليهود على أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها (١) . وهذا الحادث متفق عليه ، كما أنه متفق على أن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم عملوا بهذا بعد وفاة النبي عليه السلام .

وأمر معاملة يهود خيبر معروف مشهور . خلاصته أن النبي (ص) بعد أن هزمهم رأى أن يقيمهم على أرضهم . والمشهور أن ذلك كان برجاء منهم حتى يجدوا مرتزقاً فأقرهم النبي (ص) على الأرض بياضها وسوادها ؛ على أن يشاطروهم نصف ما يخرج منها (٢) . هذه الحادثة الوحيدة اتخذت عند بعض الفقهاء دليلاً على جواز المزارعة إطلاقاً . ورأى البعض الآخر (فتح القدير والإمام مالك) أنها لا تجيز المزارعة إطلاقاً . على أن ابن حزم في المحلى يؤيد إمكانية المزارعة لما توارى من أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يمارسونها في عهد النبي (ص) وفي حياته ولو كان منها بأس لنهاهم عنها ، أو لو أراد أن يقيدوها لاختط شروطها وبين حدودها (٣) ، كما ذهب ابن قدامة في المغنى إلى أن أحاديث رافع بن خديج — على فرض صحتها — منسوخة بحادث معاملة أهل خيبر ، فالمزارعة عنده كما تمت بين المصطفى (ص) وبين يهود خيبر صحيحة سليمة وما عداها من أحاديث منسوخ بها .

وجملة رأى الأئمة : أن أبا حنيفة والشافعى وابن حنبل يجيزون هذه المزارعة ويأباهما الإمام مالك إلا بشروط خاصة . ولم نجد بين الفقهاء جميعاً من تعرض أو بحث في حكمة التحريم أو التجويز . اللهم إلا ما ذكره البعض من أن التجويز قام على أن في المزارعة

(١) صحيح البخارى ج ٣ — ص ٢١١ .

(٢) صحيح مسلم ج ١ — ص ٤٥٦ .

(٣) المحلى ج ٨ — ص ٢١٥ .

صلاحاً لشأن الناس وإقراراً لنفع كانوا ينتفعون به . وهم وإن اختلفوا في حكمهم على بعض الصور الخاصة بالكراء والمزارعة ؛ فليس لهذا الخلاف وزن كبير لأنه لا يمس جوهر القضية وإن كان يؤثر في حواشها .

٣ — هذا مجمل ما قيل في المزارعة وكراء الأرض نلاحظ عليه ما يأتي :

(أ) إن الذين حرموا الكراء وأباحوا المزارعة أقروا أحاديث رافع وهي لا تنص على كراء أومزارعة ؛ بل أن مضمونها أن من كانت له أرض فيما أن يزرعها (أي بنفسه) وإما أن يمنحها أخاه دون مقابل . كما استندوا على أن كراء الأرض هو أخذ مال غير مضمون إذ قد لا تنبت الأرض إطلاقاً ؛ فتعين قدر من الذهب أو الفضة نظير استئجار الأرض أخذ مال بالباطل لأنه مضمون معلوم ، ونأج الأرض مجهول . وهو مالا يجوز شرعاً .

(ب) إن الذين أجازوا الكراء استندوا إلى حديث واحد — على ضعفه — ولم يوردوا حوادث خاصة محددة وقعت في عهد الرسول (ص) تثبت دعواهم وكانت غاية حجتهم نفع الناس .

(ج) إن من حرم الكراء والمزارعة استند على أحاديث رافع وجابر وكثير من الصحابة ؛ وهي أحاديث عامة تنسحب على الأمرين جميعاً . أما معاملة خير فقد اعتبروها شاذة عن القاعدة ، ولم يقصد بها نسخ الأحاديث ، وإنما كانت هذه المعاملة لضرورة اقتضتها ظروف السياسة ؛ فهي لم تكن مزارعة بالمعنى المفهوم فقد كان اليهود مغلوبين على أمرهم وهم الرسول (ص) بإخراجهم من أرضهم . وقد صارت الأرض ملكاً للمسلمين بحق الغلب ، ولم تكن ملكاً خاصاً لشخص المصطفى عليه السلام . فرجوا النبي (ص) أن يقيمهم في أرضهم يعيشون من ثمرها فأجابهم عليه السلام إلى رجائهم على أن يكون لهم الشطر من الثمر قاصداً أن يتألفهم وأن يجمعهم في موطنهم حتى لا ينتشروا في الدولة الوليدة يعيشون فيها فساداً بعد أن حاولوا ما حاولوه من إفساد أمر المسلمين في المدينة . فكان إقرار اليهود على أرضهم كان لحكمة سياسية ارتأتها الدولة تأميناً لمصالحها العليا وكأن مشاطرتهم النصف كان لإشعارهم أبداً بخضوعهم للدولة الإسلامية الحديثة وبوجوب التسليم لها . ولعل أكبر دليل على ذلك هو أن المزارعة أياً كانت إنما هي عقد ، ولكل عقد أجل مسمى . أما في حالة يهود خيبر فلم يُسمَّ أجل ولم تكن إرادة أحد الطرفين حرة فلم تتم أركان العقد . فليس من محكم القول أن

نذهب إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد بهذه المعاملة سن تشريع جديد يفسخ سابق أقواله في تحريم الكراء والمزارعة المطلقة .

(د) احتج بعض الفقهاء الذين يبيحون المزارعة بأنه تواتر خبر كثير من الصحابة الذين كانوا يفعلون ذلك ، ولم ينههم رسول الله عليه السلام عنها . و نرى ألا نأخذ بهذه الحجة لأمرين : الأول أنه ورد عن كثير من الصحابة أيضا أنهم نهوا عن كراء الأرض أو المزارعة عليها ، وهذا التناقض يوجب إسقاط الحجة لا للرأى ولا عليه . والثانى أنه إما أن يكون هؤلاء الصحابة الذين زارعوا قد فعلوا ذلك قبل معاملة خير أو بعدها . أما وقد كانت معاملة خير في أواخر أيام المصطفى (ص) فالأغلب أنهم (أو بعضهم) زارعوا قبلها . وفي هذه الحالة إما أن نأخذ بحديثي رافع وجابر فيكون تناقض بين النهى والفعل وهذا مالا يجوز على الصحابة ، وأما أن نسقط الأحاديث فيسقط كل نص ينسحب لاعلى المزارعة وحدها بل على الكراء أيضا وهذا ما لم يقل به فقيه . فصح عندنا إذن ما ورد عن المحدثين ، وتناقض وتساقط ما ورد عن فعل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . كما صح أن معاملة يهود خير غير ناسخة للأحاديث بل هى عمل من نوع خاص لم يقصد به النبي (ص) إلى التشريع العام فلا يحتاج به .

(هـ) إن حادثة معاملة خير دليل قطعى عندنا على أن من حق الدولة أن تمتلك الأرض وأن تستثمرها بما تراه الأفضل . ذلك أن هذه الأرض بالذات لم تكن ملكا شخصا للنبي (ص) وإنما آلت إلى الدولة الإسلامية بحق الفتح كما أسلفنا ، وقد رأى رئيس الدولة أن تظل الأرض ملكا لها ، وأن يستغلها يهود خير في مقابل أن يدفعوا شطر ما يخرج منها . فنظرية التأميم national ization قد تقررت إذن بهذه السابقة ولا محل لنقد هذا الرأى بالقول أن هذه الأرض لم تكن أصلا ملكا للمسلمين انتزعتها الدولة لتستغلها هى من دونهم . إذ المعروف أن القاعدة العامة كانت تقسيم النىء وأن النىء حق لهم فالاحتفاظ به للدولة دون تقسيم على مستحقه تحويل للدولة بلا شك فى أن تضع يدها على حقوق رعاياها متى رأت فى ذلك مصلحة تقتضيها سعادة المجموع . والملكية لا تعدو أن تكون حقا من الحقوق الفردية التى لا يمكن أن تصان فى مجتمع متعدين ما لم تحمها وتقرها الدولة ، فصح إذن أن للدولة حق تأميم الملكيات الفردية بشرطه .

السياسة البربرية في مراکش

عناصرها — مظاهر تطبيقها

للأستاذ علال الفاسي

(٢)

أما المظهر القضائي للسياسة البربرية ؛ فقد لحصته لجنة الأبحاث القيمية في العمل على تحقيق رغبة الاستعمار الفرنسي في القضاء على المحاكم الإسلامية ، وإحلال المحاكم الفرنسية محلها بالنسبة لجميع المغاربة على السواء ؛ وذلك وفقا للخطة التي اتبعتها فرنسا في الجزائر قبل مائة سنة ، ولكن وضع المغرب السياسي ووجود الإطار القضائي لحكومة السلطان يحول في مراکش دون تحقيق ذلك بصفة واضحة ؛ فيجب إذن البدء في إلغاء المحاكم الشرعية في مناطق البربر ، وإحلال الجماعات العرفية مكانها على أن لا يكون ذلك إلا مرحلة انتقال من القضاء الإسلامي إلى القضاء الفرنسي مباشرة ؛ لأن خبراء السياسة البربرية اعترفوا دائما بعدم صلاح الأعراف القبلية لأن تكون قانونا موحداً للمغرب ، كما اعترفوا بالمشاكل التي لا حد لها والتي تنشأ عن تطبيق أعراف تختلف في كل قبيلة عنها في القبائل الأخرى ، على أنها في كثير من جوانب العمل أعراف خيالية لا وجود لموادها ، ولا لأحكامها .

ومنذ صدر مرسوم ١١ سبتمبر سنة ١٩١٤ والمختصون الفرنسيون يبدلون الجهود الجبارة لخلق أعراف وجمع أخرى وتأسيس جماعات بربرية لإتمام التفرقة المنشودة بين المواطنين في مراکش ، وعلى الرغم من المقاومة التي لقيتها هذه السياسة من حكومة السلطان مولاي يوسف رحمه الله فإن السلطات الفرنسية والت نشاطها حتى أمكن للمسيو (دولاسال) أحد كبار الكتاب الكاثوليكين أن يقول : « إن أول وأعظم مظهر للسياسة البربرية يرجع إلى يوم ١١ سبتمبر سنة ١٩١٤ وهو التاريخ الذي صدر فيه مرسوم يعترف ببقاء البربر تحت نظام عرقي ولو كان منافياً للدين والشرع الواجب على كل مسلم اتباعهما ، وكل ما صنع بعد ذلك فهو مستند إلى هذا القرار الذي ما فتىء السلطان — بما جيل عليه من حب للنصرة الدينية — حاقا على صدورهم ، ومتألماً من وجوده . وقد كتب هذا الكاتب نفسه في أول سبتمبر سنة ١٩٢٧ في مجلة تاريخ البعثات فقال : « إنه لم يتم بعد فصل المغرب الذي سيصبح عن طريق الفتح بربريا عن المغرب الذي

سيتبقى عربياً ، ولن يتم ذلك بسهولة بسبب المقاومة المستفحلة التي يبذلها السلطان وحكومته ؛ لأن السلطان هو الرئيس الديني والمدني فهو لا يريد أن يُضعف سمعته الدينية في البربر بموافقته على فصلهم عن الشريعة الإسلامية (١) .

ولكن هذه المقاومة المغربية لم تمنع الإقامة العامة من بذل سائر المحاولات ؛ ولذلك أسس المارشال (ليوطي) سنة ١٩٢٤ لجنة برئاسته مهمتها البحث عن وسيلة لتحقيق الأهداف القضائية للسياسة البربرية ، ويمكن لنا أن نستخرج من محضر إحدى جلسات هذه اللجنة المنعقدة في يوم ٨ أكتوبر ما يأتي :

١ — لقد أُسست الجماعة القضائية في القبائل ذات العرف البربري ، وقد بدأ النظام يعمل عمله ؛ فيجب أن نحدد ما يلزم من إجراءات واختصاصات .

٢ — ليس هناك مانع من تحطيم وحدة النظام القضائي في المنطقة الفرنسية . وحيث إن الغرض هو تقوية العرف البربري لدور التوازن الذي يمكن أن تدعو الحاجة إليه ، فلا شك أن هناك فائدة سياسية في تحطيم المراءة (٢)

إن هاتين الفقرتين تشهدان بأن الحماية هي التي خلقت وأُسست الجماعات العرفية التي لم يكن لها وجود من قبل . كما تبينان الغاية التي ترمى إليها الحماية وهي تقسيم البلاد إلى كتلتين حفظاً للتوازن الذي قد تدعو إليه حاجة الاستعمار . على أن محاضر هذه الجلسات التي سبق للحركة الوطنية المراكشية أن اكتشفتها ونشرتها تشتمل على كثير من الاعترافات الخطيرة في الموضوع ؛ فقد صرح أحد أعضاء لجنة أخرى انعقدت في يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٣٠ بما يأتي :

« إن من المقرر الآن أن يصدر نص تشريعي يعترف بوجود الجماعة ؛ ولكن يجب أن نبحت هل هذه المخلوقة الجديدة التي تستحق أن يعترف بها . لقد أُسست هذه الجماعة عن طريق إجراءات إدارية ، وتبعاً للتعليمات التوجيهية الصادرة في سنة ١٩٢٤ ، أما قبل ذلك فقد كان البربر يترافعون أمام المحكمين » . وقد أجاب رئيس المراقبة بالعبارة الآتية : « إنني أوافق الأستاذ (بيكار) على أن الجماعة لا وجود لها من الناحية القضائية وقد أثبت الأستاذ (برينو) أن الجماعة لا حق لها في أن تحكم وتقضي » .

وإذن فالجماعة إنما هي قنطرة تُعبر للوصول إلى المحاكم الفرنسية ، وقد صرح بذلك الرئيس الأول لمحكمة الاستئناف الفرنسية فقال : « إن كل ما وضع في العدلية البربرية ليس إلا حالة مؤقتة ؛ ولذلك لا ينبغي خلق شيء جديد ، وإنما يجب اتخاذ وسائل

(١) السنة الرابعة عدد ٣ من مجلة (تاريخ البعثات) ص ٣٢٨ .

(٢) انظر مقال الاستاذ محمد الزبيدي في مجلة (مغرب) عدد مايو ويونيه ١٩٣٣ .

الاحتفاظ لأجل المستقبل ، والاتجاه نحو القضاة الفرنسيين» (جلسة ٢٦ فبراير سنة ١٩٣٠) وفي جلسة ٦ مارس من نفس السنة صرح الرئيس المذكور متنبئاً : « إنى أرى في المستقبل قضاة فرنسيين عند البربر ، ولكن لم يحن الوقت بعد ، ومع ذلك فلا أرى شيئاً يمنع من وصول هذا الوقت »

وقد أوضح الجنرال (نوجيس) في جلسة ٢٦ فبراير سنة ١٩٣٠ الوسائل التي سوف تتخذها الإقامة العامة لتحقيق أهدافها فقال : « إن عدد الجماعة يمكن أن ينقص تدريجياً حتى يصبح مَن بقي من الأعضاء مستشارين للقضاة الفرنسيين » .

ولكن هذا التطور لا يخص الجماعات العرفية ، بل يشمل حتى ما بقي من المحاكم الشرعية ؛ ولذلك صرح مدير الأمور الأهلية معقبا على كلام الجنرال : « بأن كل مجهودات الولاة الفرنسيين سواء في مناطق العرف أو في مناطق الشرع لا ترمى إلا إلى هذا التطور » .

وفي انتظار هذا التطور استصدرت اللجنة مرسوم ١٦ مايو سنة ١٩٣٦ وهو الذى اشتهر (بالظهير البربرى) فاستطاعت بمقتضاه أن تفصل كل القبائل التي تعدّها الإقامة الفرنسية العامة ذات عرف بربرى عن حظيرة المحاكم الإسلامية ، وهكذا أصبح ما يربو على مليون ونصف من المسلمين المراكشيين يخضعون رغم إرادتهم لمحاكم تقضى بأعراف جاهلية ما أنزل الله بها من سلطان ، وإلى القارىء أمثلة من هذه الأعراف :

- ١ — الزوجة والبنات ، وكل الإناث يعتبرن في عداد الشيء الموروث .
 - ٢ — تركة المرأة المتوفى عنها زوجها إذا توفيت ولم تعقب ذكوراً ترجع إلى ورثة زوجها الذى مات قبلها .
 - ٣ — الزنا بالبكر أو بالمتزوجة يستوجب أداء تعويض قدره خمسون ريالاً .
 - ٤ — دية المقتول ثلاثمائة ريال إن كان ذكراً ، ومائة وخمسون إن كان امرأة^(١) .
- ولست بحاجة إلى أن أقول إن هذه الأعراف المصطنعة لم تكن لتقوى على البقاء إزاء الشريعة الإسلامية ؛ ولذلك فلا بد من أن تزول محاكم الشرع لتفسح لها هي المجال ، ثم ليحس البربر بضرورة الخلاص منها ولو بقبول الانضمام إلى المحاكم الفرنسية . ولقد صرح المسيو (لوسيان سان) مقيم فرنسا العام الأسبق وهو الذى ذيل بإمضائه ظهير عام ١٩٣٠ البربرى « إننا نحن الفرنسيين لا نجبر الشعوب التي فتحناها على الإذعان لنا والاندماج فيها دفعة واحدة ولو بالقوة ؛ وإنما نأمل أن نرى هذه الشعوب تندمج من

تلقاء نفسها في العائلة الفرنسية ، وإن الاندماج عن طريق القانون مفسد جداً في نظري ، فكلما اقتربت القوانين المحلية من قوانيننا أخذنا نتجه نحو اندماج الأجناس الذي هو وحده وسيلتنا للحفاظ على الأمن وأساس طمأنينتنا وخلودنا وليس علينا إلا الشروع في العمل بعزيمة وثبات (١) .

تلك هي الغاية التي يحارب المستعمرون من أجلها محاربتنا الإسلامية لأنهم يؤمنون بأن في بقائها ضماناً لاستقلالنا وبقاء كياننا .

ولنرجع الآن إلى الحديث عن العنصر الثالث من عناصر السياسة البربرية وهو ما يتعلق بالتعليم ومناهجه في قبائل البربر ، وسنرى كيف أن هذه السياسة التي ترمى إلى ابتلاع المغاربة المسلمين في الأسيرة الفرنسية المسيحية ، قد استعملت كل الوسائل العملية والإدارية لخلق كتلتين منفصلتين اصطناعياً ، وليس من الناحية القضائية والسياسية فقط بل حتى من الناحية اللغوية والدينية .

ومتى علمنا أن القائمين على السياسة البربرية وأنصارها هم من رجال الأكليروس الذين يحزّون في نفوسهم نجاح الإسلام والعروبة في هذا الجزء من أفريقيا الذي لم يتقبل أبداً دعوة المسيحية ولا ثقافة دولها ، عرفنا مقدار الكفاح الذي يبذلونه في سبيل القضاء على ثقافة الإسلام ولغة الضاد ، ولئن باءت أعمالهم كلها بالفشل فما ذلك إلا بفضل ثبات المؤمنين المغاربة وتمسكهم بديانة الرسول عليه السلام ، وبلغته التي هي لغة القرآن .

يقول مسيو (جود فوري دو منبين) في أطروحته (عمل فرنسا في المغرب فيما يخص التعليم) ص ١١٩ : « من الخطر أن تترك كتلة ملتحمة من المغاربة لغتها واحدة ، وأنظمتها واحدة ، يجب أن نستعمل لفائدتنا الحكمة القديمة (فرّق تسد) ووجود العنصر البربري أداة نافعة لحفظ التوازن مع العنصر العربي ، ومن الممكن أن نستعمله ضد الحكومة المراكشية نفسها ، على أن المؤلف يعترف في صفحة ١١٨ بأن اللغة العربية هي اللغة الاقتصادية والدينية في المغرب الحالي ، وأن البربري يعتبر العربية لغة عليا ، ولكن المؤلف يقول مع ذلك في ص ١١٩ « يجب أن تقوم اللغة الفرنسية لا اللغة البربرية مقام اللغة العربية كلسان مشترك وكلسان للمدينة (٢) » .

ولتحقيق هذه الغاية فليست هناك وسيلة غير التعليم ، يجب أن تكون المدرسة البربرية الخاصة التي لا تعلم اللغة العربية . وذلك ما أنجز فعلاً فقد أسست مدارس للبربر

(١) رسالة (فرنسا وسياستها البربرية) ص ٦٧ .

(٢) أنظر كتاب (الحركات الاستقلالية في المغرب العربي) ص ١٦٢ .

يحدثنا عنها (الكومندان مارتى) فيقول: «إن المدرسة الفرنسية البربرية فرنسية بتعليمها وحياتها، بربرية بتلاميذها وبيئتها، إذن فليس تمت واسطة أجنبي؛ فكل تعليم عربي وكل تدخل من قبل الفقيه، وكل ظاهرة إسلامية يجب منعها بصرامة تامة، فنحن نبتعد من تلقاء أنفسنا عن كل مرحلة تصلح لأن تكون مرحلة تبلور إسلامي، وإن الآراء هنا وفي كل مكان متفقة على هذه النقطة (١)».

ويحدثنا مسيو (موريس لوكلاي) في مقال له بعنوان (المدرسة الفرنسية لدى البربر) فيقول: «يجب أن نحذف تعليم الديانة الإسلامية واللغة العربية من مدارس البربر، وأن تكتب اللهجات البربرية بحروف لاتينية» ثم ختم مقاله بهذه الصراحة: «يجب أن نعلم البربر كل شيء ما عدا الإسلام».

وطبى أنه إذا أريد تحويل العناصر البربرية من طبعها الأصلي أن يعمل بصفة مباشرة فيما يرجع للطفل البربري. وقد احتاط البرنامج الذي وضع سنة ١٩٢٠ لذلك فحذر من التسامح في تأسيس الكتاتيب القرآنية، وقرر منع تعليم اللغة العربية في المدارس القروية، وفي سنة ١٩٢٣ تبلورت السياسة البربرية فيما يرجع للتعليم وتحدت في ضرورة إقصاء أطفال البربر عن كل شيء عربي أو إسلامي، وتقريبهم من المسيحية والفرنسية. وقد حدد مسيو (دومنين) هذه السياسة في أطروحته وتلخص فيما يأتي:

١ — الإبقاء بقدر الإمكان على ما يوجد من فوارق بين السهول السهلة والجبال للسلسلة، والاحتفاظ بالتقاليد الموروثة عند البربر والحيلولة بينها وبين كل نفوذ عربي أو إسلامي.

٢ — توجيه البربر في اتجاه فرنسي؛ وذلك بمنع تعليم العربية والقرآن بصفة بارة، وبعدم ارتباط المعلم الفرنسي بصفة ما مع أي فقيه يبقى له وجود في القرية. وعلى العكس فإن تعليم اللسان الفرنسي هو الغاية الأولى من المدرسة البربرية، يجب أن تصبح اللغة الفرنسية لسان الإدارة والاقتصاد عند البربر وأداة الحضارة العصرية بالنسبة لبرابرتنا.

لم تكن هذه السياسة مجرد أمان يتحدث بها كتاب خياليون أو يؤمن بها استعماريون مثاليون؛ بل كانت على العكس نتيجة لرغبة شديدة ممن يتحملون مسؤولية الحماية، كما يدل على ذلك المنشور الذي سبق أن أصدره المارشال (ليوطي) وقد جاء فيه: «ليس من حقنا قبل كل شيء أن نعلم اللغة العربية؛ لأن اللغة العربية من عوامل الإسلام فهي لغة القرآن، وتقضى مصلحتنا بأن يتطور البربر خارج نطاق الإسلام. أما فيما يتعلق

باللغة فيجب أن تنتقل من البربرية إلى الفرنسية ؛ ولذلك يجب أن يكون عندنا متبررون فلا بد لضباط الأمور الأهلية من أن يتعلموا لهجات البربر .

لقد كان هذا المنشور دستوراً حرص الولاة الفرنسيون من عسكريين ومدنيين على تطبيقه ، فعدوا يستعملون كل نفوذهم لمقاومة الفقهاء ، ومطاردة معلمى اللغة العربية والدين الإسلامى ، بل أصبحوا يعتقلون فى داخل المساجد الأساتذة المسلمين الذين لاذب لهم غير تعليم الناس أصول التوحيد وقواعد الدين . ومن أمثلة ذلك ما فعله (القبطان عيار) فى مركز عين اللوح حيث حكم بالسجن عاما كاملا على السيد عبد العزيز بن عبد الصادق بتهمة أنه يعاكس سياسة الحماية البربرية . أما جريمته فعهى أنه ألقى دروساً فى مسجد القرية فى شرح منظومة ابن عاشر فى التوحيد وأحكام الطهارة والصلاة ، وقد اعتقل مع هذا الأستاذ مؤذن المسجد؛ لأنه لم يطرد الفقيه ، ولم يبلغ خبره للادارة الفرنسية . ووقع مثل هذا فى جهات عدة حتى انقطعت عمليا كل دروس الدين بالمساجد ، ولم يعد يجد البربر من يعلمهم أحكام دينهم إلا عن طريق السر وفى طى الحفاء .

تلك هى خطوط السياسة البربرية التى تستير العمل الفرنسى فى مراکش ، وهى التى سبق أن سیرت عملها فى تونس والجزائر من قبل ، ونحن لا نريد أن نتحدث عما أثارته تلك السياسة من غضب واحتجاج فى داخل المغرب وفى سائر أنحاء العالم الإسلامى ؛ حتى كانت السبب المباشر لخلق الحركة الوطنية الاستقلالية فى مراکش . تلك الحركة التى يعلم الكل من أنبائها الشئ الكثير ، وإنما نريد أن نؤكد أن هذه السياسة ما فتئت الدستور الذى يؤمن به مصطلحو السياسة الأهلية ، ورجال الإقامة العامة الفرنسية فى بلادنا ، وأنها هى المسئولة أولا وأخيراً عن كل الدسائس التى تحيكها السياسة الفرنسية فى مراکش ضد سيادة البلاد ووحدتها ودينها وثقافتها وملكها .

وإن عرض هذه الحقائق من جديد على رأى العام العربى والإسلامى ، ليزدكر بضرورة العناية الزائدة بتتبع أحوال المسلمين فى المغرب ، وما يحيكه الاستعمار الفرنسى من دسائس لا قبل لهم بدفعها إلا بعون الله ، ومعاضدة إخوانهم المسلمين .

إن القضية قضية حرب قاسية يعلنها الاستعمار على الإسلام ، والثقافة الإسلامية واللغة العربية فى مراکش . فواجب كل مسلم على وجه الأرض أن يذكر مراکش ويشجعها على المضي فى جهادها المقدس لحماية الدين الإسلامى والاحتفاظ باللغة العربية ، وإن كل تقصير فى هذا الشأن يُسأل عنه أصحابه أمام الله وأمام المسلمين الأولين ، الذين أوردونا الدعوة المحمدية غضة طرية ، وأرادونا أن نكون مثلهم أهلاً لرعايتها ، وتبليغها لمن بعدنا إلى يوم الدين .

صفحة من تاريخ الجهاد الإسلامي في الهند

لسماحة السيد أبي الحسن الندوي

وكيل ندوة العلماء بالهند

[شاهد القرن الثالث عشر الهجري حركة دينية قوية واسعة ، وجهاداً إسلامياً عظيماً لم يعرفه التاريخ الإسلامي منذ قرون ؛ فقد قام في الهند في فجر هذا القرن إمام من كبار أئمة الدعوة الإسلامية وهو السيد أحمد بن السيد عرفان الحسني المولود في راني بريل (في المقاطعات المتحدة في الهند) عام ١٢٠١ هـ ، ودعا إلى الدين الخالص ، وأشعل في القلوب شعلة الإيمان والحماة الإسلامية والجهاد في سبيل الله ، ونظم جماعة كبيرة ، وأحسن تربيتها الدينية والحربية وهاجر معها من طريق بلوچستان وأفغانستان إلى حدود الهند الشمالية واتخذها مركزاً لدعوته ليتقدم منها إلى الهند لإجلاء الإنجليز وتأسيس الدولة الإسلامية على منهاج الكتاب والسنة ، وقد هزموا سكانها الذين احتلوا بنجاب ، وأذاقوا المسلمين سوء العذاب في معارك كثيرة ، وأسسوا دولة شرعية في الحدود الهندية الشمالية الغربية نشتغل على بشاور وما جاورها من البلدان والقرى ، ونفذوا الحدود الشرعية وطبقوا النظام الإسلامي المال والإداري تطبيقاً دقيقاً . ولكن ثارت عليهم القبائل التي تقطن الحدود لمصادمة هذا النظام لماآربهم الشخصية وعاداتهم الجاهلية ، فقبلوا هذا النظام ثم استطاع المجاهدون بجيش سكم في وادي بالا كوت فاستشهد الإمام أحمد وصاحبه الشيخ إسماعيل وكبار أصحابهما عام ١٢٤٦ هـ ولجأ الفل إلى الجبال ، ولم يزل هؤلاء وأصحابهم في الهند قائمين على الحق باذلين في ذلك النفس والنفس ، والإنجليز يطاردونهم ويضطهدونهم ويصادرون أملاكهم وأموالهم ، ويحاكمونهم بمحاكم طويلة عريضة ، وهم صابرون محسبون ، لا يضطربون ولا يترزعون ، ولا يلبنون ولا يستكينون . وإلى إخواننا في مصر وهم في كفاح مع الإنجليز تقدم فصلاً رثماً من فصول هذا التاريخ المجيد ، ورواية من روايات البطولة الإسلامية والإيمان القوي عسى أن يتزودوا منها بقوة جديدة ، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض ...]

في اليوم الثاني من شهر مايو سنة ١٨٦٤ م جلس (إيدروس) القاضي الإنكليزي على كرسى في محكمة أنباله وجلس بجانبه أربعة من وجهاء البلد ليزوا رأيهم في القضية ، ووقف أمام هؤلاء أحد عشر رجلاً تنطق وجوههم وملاحظهم بشرفهم وبراءتهم ، ولكنهم اعتُبروا من كبار الجناة والمجرمين ؛ فإنه يقال إنهم دبّروا مؤامرة ضد الحكومة الإنكليزية في الهند وكانوا يساعدون أنصار السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد

والمجاهد الجليل الشيخ إسماعيل الشهيد على حدود أفغانستان بالمال والرجال يرسلونها سرّاً من داخل البلاد بحكمة عجيبة ، وقد وضعوا لمراسلاتهم لغة رمزية ، وكانوا يجمعون إعانات من رعايا الإنكليز أنفسهم ويرسلونها إلى مركز الثوار . عثرت على ذلك الحكومة بوشاية جندي مسلم في جنود الإنكليز وأسرتهم في بقتة وتهافيسر ولاهور وحاکمتهم وهذا يوم يصدر فيه الحكم عليهم .

غصت المحكمة بالزائرين فقد كانت القضية حديث المجالس ، وحان صدور الحكم فشخصت الأبصار وأصغت الآذان واضطربت القلوب وخفتت الأصوات ؛ وإذا بالقاضي يتكلم في صوت الغضبان ويخاطب شاباً جميلاً قوياً يظهر أنه ربيب نعمة وسليل شرف . « إنَّكَ يا جعفر رجل عاقل متعلم ، ولك معرفة حسنة بقانون الدولة ، وأنت عمدة بلدك ومن سراته ، ولكنك بذات عقلك وعلمك في المؤامرة والثورة على الحكومة ، وكنت واسطة في انتقال المال والرجال من الهند إلى مركز الثوار ، ولم تزد إلا أن جددت وعانددت ، ولم تثبت أنك كنت مخلصاً وناصحاً للدولة ، وها أنا ذا أحكم عليك بالإعدام ومصادرة جميع ما تملك من مالٍ وعقارٍ ، ولا يُسلم جسدك بعد الشنق إلى وراثتك ، بل يدفن في مقبرة الأشقياء بكل مهانة ، وسأكون سعيداً مسروراً حين أراك معلقاً فشنوقاً » .

استمع الشاب في سكون ووقار ، ولم يتغير ولم يضطرب ، ولما انتهى القاضي من كلامه قال محمد جعفر : « إن النفوس والأرواح بيد الله تعالى ، يُخي ويحيي وإنك أيها القاضي لا تملك حياة ولا مماتاً ولا تدري من السابق منا إلى منهل الموت ؛ فوالله ما أدري وإنى لأوجل على أينما تغدو المنية أولُ »
ثار الرجل غضباً وجُن جنونه ، ولكنه قد أطلق آخر سهم من سهامه لا يملك غيره .

استبشر محمد جعفر حين صدر عليه الحكم قهلاً وجهه فرحاً ، كأنما تمثلت له الجنة وتمثلت له الحور والقصور وتمثل بيت الشاعر :

هذا الذي كانت الأيام تنتظر فليُوف لله أقوام بما نذروا »
أخذ الناس العجب مما رأوا ، ودنا إلى محمد جعفر ضابط إنكليزي يقال له (بارسن) وقال له : لم أر كاليوم ، قد حُكم عليك بالإعدام وأنت مسرور مستبشر ،

قال محمد جعفر : — « ومالى لا أفرح ولا استبشر وقد رزقنى الله الشهادة فى سبيله ، وأنت يا مسكين لا تدرى حلاوتها » .

وحكم القاضى على رجلين آخرين بالإعدام أحدهما شيخ تلوح عليه سماء الصالحين وآية العابدين ، قد تلقى النبأ فى سرور وشكر ، وهو مولانا يحيى على الصادقورى أمير هذه الجماعة ، والآخر شاب يظهر أنه من الأغنياء والتجار الكبار ، وأن أصله من بنجاب ، وهو الحاج محمد شفيح ، وحكم على الثمانية بالنفى المؤبد .

سمع الناس المجتمعون الحكم فى حزن وأسف شديد وفاضت العيون ، وسالت الدموع ، واجتمع الناس من رجال ونساء على جانبي الشارع إلى السجن ينظرون إلى هؤلاء المظلومين ويرثون لهم .

ووصلوا إلى السجن ونُزعت ثيابهم وألبسوا ثياب المجرمين ، وسُجن كل واحد من الثلاثة فى حجرة ضيقة مظلمة لا يدخل فيها الهواء ولا ينفذ فيها النور ، وباتوا فيها فى حرّ شديد بِشَرِّ ليلة بات بها قوم ، وجاءت بكرة برقية تسمع لهم بالمبيت فى الميدان ،

وفى النهار أعيدوا إلى حجراتهم الضيقة ، وكان لا يمكن لأحد أن يعيش فى مثل هذه الحجرة الضيقة مدة أسبوع ، ففتح بابها وعُيِّن جندي يحرس هؤلاء وكان هؤلاء الجنود أكثرهم من الكفار ، فكان مولانا يحيى على يغتنم الفرصة ويأتسى بأسوة يوسف الصديق عليه السلام ، ويخاطب الحارس ويقول : « أأرباب متفرون خبر أم الله الواحد القهار » فيظل الرجل باكياً فإن نُقِل من مكانه حزن حزناً شديداً .

وهكذا غرس الشيخ فى قلوب كثير من أصحاب السجن عقيدة التوحيد ، وبذر فيها بذور الإيمان ، وكم من رجال أسلموا ، وكم من ناس تابوا ، وكان الشيخ لا يضيع فرصة فإذا صادف أحداً أمره بالمعروف ونهاه عن المنكر .

وبدأ زبانية السجن يصنعون لهؤلاء حبلاً وعوداً للشنق على مرأى منهم ومسمع ، وهؤلاء يرون كل ذلك مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

أما مولانا يحيى على فهو من أشد الناس فرحاً كأنه من شوق الجنة فى جنة ، ومن انتظار النعيم فى النعيم ، ينشد الأبيات فى حنين ووجد ، ويتمثل بما قال سيدنا خبيب رضى الله عنه عند شنقه .

ولست أبالي حين أُقتل مسلماً على أى جنب كان في الله مصرعى
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزّع
وكذلك رفقته ، وجوه ضاحكة مستبشرة ، ونفوس هادئة مطمئنة ، وقلوب
راضية مسرورة ، خشوع في الصلاة ، وعبادة في نشاط ، وذكر وتسييح وتلاوة آيات ،
وحنين ووجد وإنشاد آيات ،

مات القاضي الإنكليزي — الذي حكم على هؤلاء الثلاثة بالإعدام — فجأة على إثر
الحكم ، وجُنَّ الضابط الإنكليزي (بارسن) الذي ألقى القبض على محمد جعفر وضربه يوماً
من الساعة الثامنة صباحاً إلى الساعة الثامنة مساءً ومات في جنونه شر ميتة فكان
كما أنذر محمد جعفر . ورب أغبر أشعث لو أقسم على الله لأبره .

وكان يدخل إلى السجن كثير من الإنكليز والإفرنجيات يتفرّجون على هؤلاء
السجناء ، ويشمتون بمصير الأعداء ، وكانوا يقضون العجب من سرورهم ونشاطهم ،
ويسألونهم لماذا لا تحزنون يا هؤلاء وأنتم على عتبة الموت وعلى موعدٍ من الشنق ؟ !
فيجيبونهم ، هذا لأجل الشهادة التي ليس فوقها نعمة وسعادة !

ويرجعون إلى الحكام الإنكليز ويحدثونهم بما رأوا وبما سمعوا ، فيزدادون غيظاً
على غيظ ، ولكن ماذا يصنعون ؟ إنهم إذا أطلقوهم فقد أطلقوا أعداء قد ناروا
على الدولة ، وأنهم يرجعون إلى ذلك ، وإذا شنقوهم وقتلوهم فقد بلّغوهم أملهم
واجتهدوا في سرورهم .

قد عزّت على الإنكليز كل ذلك ولم تطب أنفسهم به .

فكرّوا في القضية وفكروا وفكروا ، ووجدوا طريقاً وسطاً بين القتل
والإطلاق ، والإنكليز أمة قانونية ذكية .

في يوم من الأيام جاء حاكم المدينة الإنكليزي إلى السجن وتلا على الثلاثة المحكوم
عليهم بالإعدام حكم محكمة الإستئناف :

« إنكم أيها الثوار تحبّون الشنق وتعدّونه شهادة في سبيل الله ولا تريد أن
نبلغكم أملكم ، وندخل عليكم السرور ، ولذلك نقسخ حكم الإعدام ونحكم عليكم
بالتنقي المؤبّد إلى جزائر سيلان » .

وهنا قُصّت لحاهم وشعر رؤوسهم ، وكان مولانا يحيى على يرفع الشعر ويغاطب
لحيته المقصوصة ويقول : « وفي سبيل الله ما لقيت » .

وشنق إنكليزي بحبل وعود أعداء أولئك المسلمين فانعكست الآية .

وأمر المسجونون بالاشتغال بأعمال شاقة ، وأمر مولانا يحيى على بنزع الدلاء من بئر ، وكانت كبيرة وثقيلة لا ينزعها الشبان الأقوياء إلا بشق الأنفس ، والأستاذ شيخ ضعيف ، وكان اليوم صائفاً شديد الحر ، فزف الدم في بوله ولكنه استمر في شغله صابراً محتسباً لا يشكو ولا يئن ، ثم نُقل إلى عمل سهل فكان يقوم به بأمانة ونصيحة ويوصي المسجونين الآخرين بذلك أيضاً ويقول لهم : إذا كنتم تتمتعون هنا بطعام ولباس فما بالكم لا تؤدّون وظيفتكم بأمانة ونصيحة .

ولم يزل الشيخ في السجن آمراً بالمعروف . ناهياً عن المنكر . داعياً إلى الله . واعظاً مرشداً حتى تاب كثير من المجرمين وأنابوا إلى الله .

ونقل الشيخ من أنباله إلى لاهور وأقام في سجنه عاماً كاملاً وكان هناك الجناة والصوص وقطاع الطريق والفساق ؛ فكان يقبّح لهم الجنايات والفسوق والعصيان ، ويُرَبِّين لهم الدين والتقوى والعفاف ، ويحثهم على الطاعة والتوبة والإنابة وإصلاح الحال ويدعوهم إلى التوحيد والمحافظة على الصلوات والصيام ويحذّره من عذاب الله ونقمته فتاب كثير من اللصوص وقطّاع الطريق وحسن حالهم وأخلصوا لله الدين وتابوا وأقاموا الصلاة .

وكان من هؤلاء رجل من بلوختان شديد البطش جباراً ، وقد سطا بخدم السجن مراراً وضربهم بسلاسله وكان لا يقوم بأعماله ووظائفه وقد عوقب عقاباً شديداً فلم يتب ولم يَلِمْ ، ويُس منه زبانية السجن وقطعوا منه الرجاء ، وصادف مبيته مرة بالقرب من الشيخ ، وأثر كلامه في قلبه لحسن حاله وصار يؤدّي وظيفته وفكّت سلاسله وأغلاله ، فصار يحافظ على الصلوات الخمس ويسكى خوفاً من الله ومن رآه شهد بأنه وليّ من أولياء الله .

ولم يزل الشيخ ورقفته ينتقلون من سجن إلى سجن ، ومن مجلس إلى مجلس حتى وصلوا في الثامن من ديسمبر سنة ١٨٦٥ م إلى (بورت بلير) من جزائر اندمان ، ومات الشيخ هناك ، بعد عامين قضاهما في عبادة ودين ودعوة الخلق إلى الله ، وكان ذلك لعشرين من فبراير سنة ١٨٦٨ م .

أما الشيخ محمد جعفر فقد صدر الحكم بالعمو عنه وإطلاقه في الثاني والعشرين من يناير سنة ١٨٨٣ بعد ما لبث في السجن ثمانية عشر عاماً .

يامصر!...

مجازى

بقلم سماحة السيد محمد البشير الإبراهيمي

رئيس جمعية العلماء بالجزائر

« افتتح سماحة السيد بهذه الكلمات النفيسة عدداً من صحيفته المجاهدة (البصائر) خاصاً بمصر، وبعث بها إلى (المسلمون) جزاء الله عن مصر المسلمة كل خير » .

نسميك بما سماك الله به في كتابه ، فكفاك فخراً أنه سماك بهذا الاسم الخالد الذي تبدلت أوضاع الكون ولم يتبدل ، وتغيرت ملامح الأرض ولم يتغير ، وحسبك تهاً على أقطار الأرض أنه سماك ووصفها ، فقال في فلسطين : (الأرض المقدسة) و (القرى التي باركنا فيها) وقال في أرض سبأ (بلدة طيبة) ولم يسم إلا الطور وهو جبل ، ومكة وهي مدينة ، ويثرب ، وهي قرية ، فتبى واخرى بهذه الميزة التي خصّك الله بها ، وخذى منها القائل على أنك منه بعين عناية لا تنام . وبذمة رعاية لا تخفر ، وبحوار آمن لا ينحزى جاره ...

نأسى لك — يا مصر — أن أنزلتك الأقدار بهذه المنزلة التي جلبت لك البلاء ، وجرت عليك الشقاء ، وأن حبّتك هذا الجمال الذي جذب إليك خطاب السوء من الأقوياء الطامحين ، والقواد الفاتحين ، وأن أجرى فيك هذا النيل العذب الذي كان فتنة الحيال البشري ، وكان وثن القدماء فتقربوا إليه بالندور والقرابين ، وكان طغوى فرعون ذى الأوتاد فحرك فيه نزعة الألوهية ، فتوهم أن شاطئيه الأخضرين هما نهاية الكون ، وأنهما كفاء لملك الله الطويل العريض ، وأن وضعك من هذا الكوكب الأرضي في موضع الواسطة من القلادة ، فتعلقت بك الأبصار حق : (كان عليك من حدق نطاقا) وأن جعلك برزخاً فاصلاً بين الشرق والغرب فكنت — على الدهر — مجال احتراب بين الشرق والغرب ، فصبراً يامصر فهذا الذي تعانيه هو مغارم الجمال والشرف والسلطة ...

سموك (عروس الشرق) فكاثماً أغروا بك الخطاب ، ومجهجوا فيك الآساد الغلاب

وسموك (بمنارة الشرق) فلفتوا إليك الأعين الحزرة ، وولوا نحوك الأعناق الغلب .
وقديماً سموا بغداد (دار السلام) فجنوا عليها ، وكأنا ولوا عليها المغيرين ، ولو سموها
(دار الحرب) لأوحى الاسم وحده بما تنخلع منه قلوب الطامعين وتغنس له عزائمهم ،
وتتكسر لتصوره الجيوش اللجبة ، فغفراً — يا مصر — فهاهذه الأسماء لإامن هيام الشعراء .

وما زلت — منذ كنت — مهوى أفئدة العظماء الفاتحين ، فأخذوك اقتساراً
وصلحاً ، وحازوك طوعاً وكرهاً ، وما منهم إلا من مهرك المهر العالي ، وساق إليك
التمين المدخر ؛ بما خلده فيك من آثاره ، وبما خلف فيك من سمات قومه ومعانيهم .
حازك الإسكندر ؛ خلفك فيك الإسكندرية ، وملكتك قميص ؛ خلفك فيك شيات من نثار
فارس وخيلائها ، وحل فيك بطليموس ؛ خلفك فيك آثاره من حكمة يونان ، وداعبك
قيصرة الرومان ؛ خلفوا فيك أثراً من عظمة الرومان ، وفتحك عمرو ؛ فمهرك
بيان العرب كله ، وهداية الإسلام كلها ، ففخراً — يا مصر — فهذه الخايل اللائحة
على صفحاتك هي بقايا مهورك الغالية ، وإن أثنىها قيمة — وحقك — وأثبتها أثراً ،
وأبقاها بقاء ، وأشبهها بشمائلك ، لمهر عمرو . فما زلت منذ تقيأت ظل الإسلام
الظليل ، تجددين منه في كل داجية نجماً ، ووراء كل ظلمة فجراً ، وما زلت كلما
شكوت ضراً في دينك ، يخف إليك من يكشفه ، وكلما شكوت شراً في دنياك يخف
إليك من يدفعه . . .

خف إليك (جوهر) حين لحقتك علامة التأنيت ، وتقلب على فراشك العبيد ،
وخف إليك (صلاح الدين) حين امتن فيك الدين ، وخف إليك « سليم » حين
لعبت بك أهواء الممالك ، وخف إليك « علي » حين تحكم فيك الصعاليك . تأخروا
بربكك عن زمانك ، فألحقك بزمنك ، وأراد لك أن يكون محلك من الغرب أماماً ،
وأن تكوني من الشرق أمماً وأمة وإماماً ؛ فما عابوك ، ولكنهم هابوك فنصبوا لك
في كل حفرة عاثوراً ووضعوا لك في كل فج نخاً ، وأجمعوا على أن لا تسكون لك جارية
في بحر ، ولا سارية في بر ، فمن بعض ذلك كل ما تعانين . . .

لئن كانت أزمانك في التاريخ كثيرة ؛ فكلها إلى انقراج عاجل . ومن المؤلم
أن تطول بك المحنة في هذه الدورة من أدوار الفلك ، وأن تبلى بنحصر لثيم الحصومة
والكيد يمدد زمنه بالقوة والأيد ، وأن يستحل حرمانك غاصب غريب لا تجمعك
به نسبة لشرق ، ولا يلف منكماً — إلى آدم — عرق بعرق ، فيجعل منك أداة

لكيده ، وجارحة لعيده ، ومطية للصوصيته ، وطريقاً لظلمه وظلامه . فلو أن المسالك ، تشترك في الإجرام مع السالك — لكان لك شرك في كل ما حمل الإنجليز من أوزار ، ولحكلك العدل كفلاً من مآثمهم في الشرقيين . إذ لولا قناتك ما نبئت له على أديم الشرق قدم ، فليتك تعاسرت بالأمس في حفر هذه القناة ؛ أو ليتك تصنعين بها اليوم ماصنع العرب بمناة . فتوسعين هذه ردماً ، كما أوسعوا تلك هدماً .. حتى إذا ملكك أمرك حفرت مايرويك ، لا مايرويك ، وما فضل ماء استنبطته يداك ، لينتفع به عداك ، وما زاد الأباة عن الحياض إلا لتكون لهم ورداً .

لاتوحشتك غربة .. إن مئآت الملايين من القلوب رفاقة على جنبااتك . حائمة على مواردك . هائمة بحبك . تقطع الآنات في التفكير فيك . ولا تقطع الآنات من الامتعاض لك ، وإن مئآت الملايين من الألسنة رطبة بذكرك . متحركة بمدحك . ناطقة بفضلك متغنية بمحاسنك ، وإن هذا لرأس مال عظيم . لم تظفر به قبلك يدان . أنت اليوم مثابة العروبة ؛ في ثراك حيي بيانها ، وبسقت أفنانها ، وفي رياضك تفتحت أزهارها ، وغردت بلابلها . ففي ذمة كل عربي حر الدم لك دين واجب الوفاء . وهذا أجل الوفاء .

وأنت اليوم قبلة المسلمين . يولون وجوههم إليك كلما حز بهم أمر ، أو حلت بهم معضلة ، وينفرون إلى معاهدك يمتارون العلم منها ، وإلى كتبك يصححون الفكر والرأى عنها ، وإلى علمائك يتلقون الفتيا الفاصلة في الدين والدنيا عنهم فلك — بذلك — على كل مسلم حق ، وهذا أوان الحاجة إليه .

وأنت اليوم مأزر الإسلام فكلام سيم الهوان في قطر ، أورماه زنديق بنقيصة ، فزع إليك واستجار بك ، يتلمس الغوث ، ويستمد الدفاع ، فلك على المسلمين في المشارق والمغارب فضل الحماية لدينهم ، وعليهم أن يطيروا خفافاً وثقالاً لتصرتك ، ثم لا منة لهم عليك ولا جميل .

وكيف بك — مع هذا — لو كنت مظهرآ للإسلام الصحيح ، ولمثله العليا في العقائد والأعمال والأحكام ؛ إذن لكنت قدوة في إحياء سننه التي أماتها البدع وفي إقامة أعلامه التي طمسها الجهالات ، وفي بعث آدابه التي غطت عليها سخافات الغرب ، وفي نشر هدايته التي طوتها الضلالات ؛ إذن لحيت وأحييت .

ومن الغريب أنك قادرة على تغيير ما بك من هذه الأدران . ثم لم تفعل ، وأنت قادرة على إعادة الإسلام إلى رسومه الأولى . ثم لم تفعل . وعيناً برة لو فعلت

لما حل بك ما حل ، ولو فعلت لقدت المسلمين بزمام ولكنت — بهم — للعالم كله إماماً أى إمام .

.. عهدك التاريخ صخرة من معدن الحق ، تنكسر عليها أمواج الباطل ، فكونى أصلب مما كنت ، تنحسر الأمواج وأنت أنت
.. أقدمت فصمى . . . وبدأت فتسمى . وحذار من التراجع فإن اسمه الصحيح « هزيمة » وحذار من التردد ، فإنه سوس العزيمة . . .
.. إنك فائزة في هذه المرة بأقصى المطلوب ، لأنك أردت فصممت ، وإنما يعين الله من مخلوقاته المصممين ، وإذا كان المطلوب حقاً ، وكان الطالب عدلاً ، فما كبر الأعوان على نيله التصميم ، فصمى ثم صمى . . .
.. إن قلبي يحدثني حديثاً كأنما استقاه من عين اليقين ، وهو أنك فائزة منتصرة بخافرة في هذه المعركة ؛ لأنك استعملت فيها سلاحاً كنت تنشدينه فلا تجدينه وهو الإرادة يحدوها التصميم . يمدّها الإيمان بالحق . يربط ثلاثهما الإجماع على الحق . .

إنك فائزة في هذا اليوم بالأمنية التي عملت لها قروناً وإن فوزك فوز للعرب وللإسلام وللشرق . فياويح دعاة الوطنيات الضيقة المحدودة ؛ إذا أقدم الأبطال نكصوا وإذا زاد الناس نقصوا . ويحهم إن المستعمر سارق ، وإن السارق الحاذق لا يسرق إلا في الظلمة أو في الغفلة ؛ فإذا انحسر الظلام ، أو انتشعت الغفلة ولتّى مدبراً بالحيلة والحسرة ، وإن مصر لفي فجر صادق ، وإنها لفي يقظة صاحبة ، فأى موضع يسع السارق فيها ؟

صمى وأقدمى ، ولا يخذعنك وعد ، ولا يزعجك وعيد .

إن الحصوم — كما علمت — لثام ؛ وإن اللؤم والجبن توأمان منذ طبع الله الطباع ؛ فخركى في وجوههم تلك القوى الكامنة في بنية يرتعدوا . .
.. صمى وقولى للمتغافلين الذين يعدلونك على الإقدام : « إن أضيع شيء ما تقول العواذل » .

اشرى كنانتك — يا كنانة الله — فإن لم تجدى فيها سلاح الحديد والنار فلا تراعى ، واحرصى على أن تجدى فيها السلاح الذى يفل الحديد ، وهو

العزائم ، والمادة التي تطفىء النار ، وهي اتحاد الصفوف ، والسن الذي يشهد هذين ، وهو العفة ، والصبر ؛ فلعمر ك — يامصر — إنهم لم يقاتلوك بالحديد والنار ، إلا ساعة من نهار ، ولكنهم قاتلوك في الزمن كله : بالأستاذ الذي يفسد الفكر ، وبالكتاب الذي يزرع الشك ، وبالعالم الذي يعرض اليقين وبالصحيفة التي تنشر الرذيلة ، وبالقلم الذي يزين الفاحشة ، وبالبنى التي تخرب البيت ، وبالحشيش الذي يهدم الصحة ، وبالمثلة التي تمثل الفجور ، وبالراقصة التي تغرى بالتخث ، وبالمهازل التي تقتل الجد والشهامة ، وبالخمرة التي تذهب بالدين ، والبدن والعقل والمال ، وبالشهوات التي تفسد الرجولة ، وبالكليات التي تثقل الحياة ، وبالعادات التي تناقض فطرة الله ، وبالمعانى الكافرة التي تطرد المعانى المؤمنة من القلوب ، فإن شئت أن تذيب هذه الأسلحة كلها فى أيدي أصحابها فما أمرك إلا واحدة ، وهى أن تقولى : إني مسلمة . . ثم تصومى عن هذه المطاعم الخبيثة كلها . . إن القوم تجار سوء ، فقاطعيهم تنتصرى عليهم ، وقابلى أسلحتهم كلها بسلاح واحد ، وهو التعفف عن هذه الأسلحة كلها ، فإذا أيقنوا أنك لا حاجة لك بهم ، أيقنوا أنهم لا حاجة لهم فيك ، وانصرفوا . . وماذا يصنع « المرابى » فى بلدة لا يجد فيها من يتعامل معه بالربا ؟ . . .

نعمة من الله عليك أن امتحنك بهذه المحنة ، وأنت فى مفترق الطريق ولو تأخرت المحنة قليلا لحسينا أن تسلكى أضل السبل . .

فرصة من فرص الدهر هيأها لك القدر للرجوع إلى هدى محمد ، ومحمد العرب ، وروحانية الشرق ، فإن انتهزتها محوت آية الغرب ، وجعلت آية الشرق مبصرة . . .

ويا مصر ؛ نحن وأنت سواء فى طلب الحق ومطاردة غاصبيه ، ونحن وأنت مستبقون إلى غاية واحدة فى ظلام داس ؛ ولكنك أصبحت ، فيأبشراك ، ويا بشرانا بك ، ولم نزل نحن فى قطع من الليل ، نرقب الفجر أن ينبلج نوره ، وما الفرج منا يبعد . . .

«المسلمون» شهاب

للأستاذ عمر عبد الفتاح التامساني

أجل . المسلمون شهاب ، لها من اسمها الضخم ثروة ، ولها من غايتها السامية مكانة ولها من إيمان صاحبها وإقدامه ، وتفانيه في دعوته ، وإخلاصه لرسالته ، وحرصه على أن يظل اللواء مسموق الندى على الجنبات ، إلى كل ذلك من إمكانات راسيات ، تدفع بها قدما إلى الأمام لتحقيق المقصد النبيل .

وأومن بأنه لا يخامر أخا مسلما ريب في أن «المسلمون» صورة صادقة من الشهاب الحبيب ، الذي نعمنا جميعا — ردحا من الزمان — بفيض توجيهاته ، وغزارة مادته ، وسمو فيوضاته . ولئن شئت إرادة الله أن تحجب عنا إشراقة الشهاب في أوج لمعانه ، فلقد كان من فضله ومنه كذلك أن يردف الشهاب المحجوب بـ «المسلمون» البازغة في أفق الحياة الإسلامية ، بزوغا ما أشد حاجتنا وحنينا إليه .

وما كنت لأبعث بهذه التحية قبل أن أتصفح «المسلمون» وأستوعبها ؛ وإلا كانت تحية زائفة ، وتقديراً رخيصاً ، أنزله بنفسه عنه ، وأسمو بـ «المسلمون» أن تعني به . ولكن أما وقد قرأت واستمعت واستفدت ، فلا أقل من تقدير الحق وذلك كل ما أملك وأستطيع .

أخي سعيد : ما إخالك وقد أصدرت «المسلمون» إلا حريصا على أن تظل آثار إمامنا الشهيد سليمة كاملة واضحة المعالم ، تطالع الإخوان شهراً بعد شهر ، وعاما بعد عام ، عن طريق نفثاتك الحارة ، وإيمانك الدفاق ، وبيانك الطاهر . وأحب الأعمال الطيبة إلى الله أدومها ؛ فلا تحرمنا هذه المتعة الروحية الغامرة ، ودعنا نستروح في الحلف ، عرّف إخلاص السلف ، والزم ميدان الكفاح الذي اخترته لنفسك أو تخيرك الله له . واعلم أن الطريق أمامك طويل ، والعمل مُضْن شاق ، ولكنك تعلم أن الله لا يضيع أجر العاملين ، وأنه بالموثمين رؤوف رحيم . أيدك الله وأيد بك .

«المسلمون» اللهم آمين ، وجزاك الله يا أخي الكبير كل خير ، وهذه نصيحة غالية أدعو الله أن يهيئ لنا أسباب العمل بها وهو الموفق المستعان .

سعيد رمضان

مع العارفين

عمرو بن عتبة

« ما أحسن الآن لو أن منادياً نادى : يا خيل الله اركبي !! »
« عمرو بن عتبة »

جلس عتبة بن فرقد أمير ماسبذان يوماً إلى بعض خلصائه وقد أهمه أمر فوجته
الحديث إلى عبد الله بن ربيعة فقال : « ألا تعينني يا عبد الله على ابن أخيك ؟ »

قال عبد الله : وما ذاك أيها الأمير ؟

قال : عمرو وإنني أحب أن تعينني عليه .

قال : وماذا في أمره مما ترجو المعونة عليه ؟

قال : أريد أن يكون معي في عمل هذه الإمارة « يعينني عليه » ، فقد تقسم الزهد
وسهر الليل وركوب الخيل والخروج للغزو كل وقته وعقله وجسمه ١١

قال معضد العجلي : أيها الأمير إن ابنك شغل بعمالي الأمور فدعه وما شغل نفسه
به ، ولقد كنا خلقاء أن نعينك على ما ترجو من صلاحه لو أنه سدر مع الخلقاء
والمستهترين بألوان اللهو والغفلة ، أما وهو مشعر إلى الله فلا ، ولقد كان الأمير
— أعزه الله — خليقاً أن يعين ولده على ما هو بسيله لا أن يستعدي عليه من يثنيه عنه

قال عتبة : والأمانة يا معضد ، من يعينني عليها ؟

قال معضد : لكأنك أيها الأمير تدخر ولدك للإمارة من بعدك ! وهيهات ، فإنك
يخلق إلى إمارة أعز ، ومجد أشم ، ويعيش بنفسه في حقيقة علوية لا يروج لديها شيء
مما يعيش فيه وله ؛ وما ذلك بمانعه يوماً أن يكون أهلاً لما تريد من الأمانة .

قال عتبة : إنه لا يمتنعاً بنفسه ؛ فهو كثير التجوال والترحال والسفر إلى الغزو ؛
إذا أقام بيننا أقام كأنه غريب ، لا يأكل مما نأكل ، ولا ينام كما ننام ، ولا يأخذ فيما نأخذ .
وبودي لو يرفق بنفسه ويصيب مما نحن فيه فما حرم الله عليه شيئاً منه ، فإن نفسى تكاد
تذهب من الرقة كلما رأته في نخوله وذبوله ؛ وقد أعطيته بالأمس مالا يصلح من حاله
وكانى به لم يأخذه إلا برأى وشفقة على من أثر الرد ، ولا أدري ما هو صانع به . . .

وهنا دخل عمرو بن عتبة فأمسك أبوه عن الكلام فقال عبد الله بن ربيعة : لعلك سمعت شيئاً مما كنا نتكلم فيه من أمرك يا عمرو .

قال عمرو بن عتبة : لم أسمع شيئاً ، ولكن لعلى قد فهمت الآن ما كنتم تتحدثون به . قال عبد الله : « فأطع أباك عمرو » .

فسكت عمرو وأطرق حزينا يفكر في وجد أبيه به ، وفي شوقه إلى الله ، وصمت المجلس لإطراقه وسكوته ؛ فرق له معضد العجلي وقطع الصمت بقوله : « لا تطعمهم يا عمرو ، واسجد واقترب ! »

فأقبل عمرو على أبيه عتبة كأنما يضرع إليه وقال : « يا أبت إنما أنا عبد أعمل في فكاك رقبتي ، فدعني أعمل في فكاكها » .

فبكى عتبة لضراعة ولده وقال : « يا بني إني لأحبك حين : حباً لله ، وحب الوالد لولده » ، فامض لما تريد من أمر ربك .

قال عمرو : « يا أبت ، إنك كنت آتيتني مالا قد بلغ سبعين ألفاً فإن كنت سألني عنه فما هو ذا نخذه ، وإلا فدعني فأمضيه » ! قال عتبة : « فأمضه يا بني » ..

« فأمضاها عمرو فما بقي منها درهم » .

ذلك هو عمرو بن عتبة ربيب بيت من بيوت الإمارة ، وشاب من شباب المسلمين الأولين تقدمه اليوم مثلاً صالحاً لشباب المسلمين الآخرين .

كان متغرباً في الله ، وقدم من سفرته مع رفقة ، منهم إبراهيم بن علقمه ، ومسروق ، ومعضد ، حتى بلغوا مشارف ماسبذان مقر إمارة أبيه .

لو أن شاباً من صغار النفوس في مثل موقف عمرو ماذا كان يدور بنفسه من الزهو بين رفقته ، وهو يعلم أن مظاهر الجاء وشارات الرياسة التي سيرونها كفيلة أن تعلى قدره بينهم وتملاً صدورهم إكباراً له وهيبة ؟

... ماذا كان يصطنع من الحديث ليشرع إخوانه من طرف خفي بما هم مقدمون عليه ؟

لندع ما يكون من صغار النفوس في هذا الموقف ، ولننظر ما فعلت تلك النفس الكبيرة التي كانت تحلق في آفاق غير التي يعيش فيها عامة الناس ؛ فلا تزدهيها الشارات ولا تفرح بما يفرح به صغار الأحلام ؛ قال عمرو بن عتبة : « إنكم إن زلتم عليه

صنع لكم نزلاً^(١) ، ولعله أن يظلم لكم فيه أحداً ، ولكن إن شتمت نزلاًنا في ظل هذه الشجرة ، فقضينا مقيلنا وأكلنا من كسرنا » ؛ ففعلوا !

لقد بلغ هذا الشاب من الرشد ما لم يبلغه أبوه . . . والرشد رشدان : رشد يميز به العقل المنطقي قيم الأشياء المادية في الخارج ، ورشد يميز به العقل الروحي قيم الحقائق وأقدار المعاني .

والرشد الأول يبلغه الطفل بعد سن معينة فيصير رجلاً ، والرشد الآخر قد يدركه الفتيان قبل الرجال ، وقد لا يدركه الرجال فيظلون أطفالاً .

وتلك الحقيقية هي التي يحلوها لنا عمرو بن عتبة بسيرته الرشيدة وحسن إدراكه لأنواع القيم .

لقد أدرك رشده ، فهان في نظره ما في بيت أبيه من ألوان المطاعم والشارب ، واستشعر وعيه الباطني ربح نعيم قدسي في ملكوت الله ، فعاف أن يكون بطنه وعاء لما عند أبيه ، وسما إلى تفحات الله يتعرض لها في أصيله وسحره ، ومغده ومراحه ، فملاّت إهابه طرباً وبهجة ، وقلبه نوراً وحكمة .

لقد أغناه عن دنيا الناس رغيان كل يوم يسد بهما فراغ بطنه ، وفي رغيين غناء لمن كان همهم أن يبسط جناحيه للتجاليق في ملكوت الله ذاهباً مع ما سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لأرباب المهم العالية : « أديموا طرق أبواب الجنة بالجوع » قال عبد الحميد بن لاحق : « كان لعمرو بن عتبة رغيان كل يوم ؛ يتسحر بأحدهما ، ويفطر بالآخر » .. وأغناه عما للناس من فرش وأرائك ووسائد حصير عتيق يريح عليه جسمه ساعة من الليل أو بعض ساعة إذا أحس كلال التهجد والقيام .

لقد كان يترنم في نفسه بكلمة سمعها من صديقه معضد العجلي : « لولا ظمأ الهواجر ، وطول ليل الشتاء ، ولذاذة التهجد بكتاب الله عز وجل ما باليت أن أكون يعسوباً » فبهتز عطفاه من الطرب ، إذ يذكر بها الرياض التي طالما صدحت فيها بلبله .. فلذاذة التهجد بكتاب الله عز وجل ، كانت قرّة عينه وبهجة نفسه ، ومهاده الوثير الذي آثره على كل مهاد ، ويارب ليلة أخذه من شجوها ما ينفي عنه طيف الغفوة فيظل في بكائه ونشيجه ، وحذره ورجائه ، ونواشئ الأسجار من حوله يبسم كالعراس الغر بما نسج لهن من غلائل ذكره ونور تسبيحه ، فلا ينصرفن عنه إلى ملكوت الله

إلا حين يبسم له ضوء الصبح من خلال الأفق البعيد ، قالت أخت له : « أحسسته ذات ليلة وقد قام إلى مصلاه فجعلت إليه سمعى وانتباهى فاستفتح سورة «حم» فلما أتى على تلك الآية من قول الله « وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » ، فما جاوزها ، وظل يرددها حتى خرج ليشهد مع الناس صلاة الصبح » ولقد قال بعض صحابته : « كنا إذا خرجنا للعدو لا نتحارس بالليل لكثرة صلاة عمرو وقيامه » .

تلك هي الموائد التي كان يطول عندها شذوه وتغريده : ظلماً الهواجر ، وطول ليل الشتاء ، وللهاذة النهجد بكتاب الله عز وجل ؛ فلا نعم عيش عباد الدرهم والقטיפه ! لقد ظل عمرو يتحسس في نفسه مواطن الرخاوة ، ومغامز الشيطان فيدبر لها علاجها في الله حتى صلب عوده واستحصدت مرته .. عالج مغمز المال فوجهه إلى الله ، وعالج ترف الطعام والمشرّب بظلماً الهواجر ، وعالج لين الفراش بلذاذة النهجد ، وبقي بعد ذلك مغمز الجاه والرياسة فما أسرع أن عالجها بأنجم دواء ، قال حويط بن رافع : كان عمرو بن عتبة إذا خرج في أصحابه يشترط أن يكون خادمهم يرعى لهم ركابهم أو يسوقها !!..

فقل لي بربك أى شيء بقي في هذا الفتى مما يطمع الشيطان فيه ؟

لقد حدث هو عن نفسه : « سألت الله ثلاثاً فأعطاني اثنين ، وأما أنتظر الثالثة .. سأله أن يهديني في الدنيا ؛ فما أبالي الآن ما أقبل منها وما أدبر ، وسأله أن يقويني على الصلاة ؛ فرزقني منها .. وسأله الشهادة فأنا أرجوها » .

هذه هي النوازع التي كانت تعمل في صدر هذا الشاب ، وتلك هي أهدافه التي هامت بها نفسه ؛ نال معظمها من فضل الله ، وبقيت الشهادة هدفه الأخير ومحوره الذي تدور حوله كل همته وخواطره وأشواقه في اليقظة والنّام . وليس كالصدق يرفع به الإنسان إلى الله دعاءه ورجاءه ؛ فما هو إلا أن يستجيب له ، وهذا فتى من أبناء السروات تلهج خواطره بذكر الشهادة ، وتهغو سريره شوقاً إليها وولها بها ، فلا جرم أن ينيله الله إياها .. لقد اشترى لغزوه حصاناً بأربعة آلاف ، وكأنه يتأنق للشهادة إذ يغلى من أجلها ثمن الجواد ، فيقول بعض الناس : إن أربعة آلاف في جواد لكثير ، فيقول : « والله لخطوة واحدة منه إلى عدو الله أفضل من أربعة آلاف » .

ولقد طلع على بعض رفقته في جبة جميلة حسنة ، فهل تدري ما كانت تتناجى به بلابل نفسه وهو يتحلى بهذه الجبة ؟ لقد ودّ لو زين وسام يغض من قدر كل وسام إلا وسام النبوة ، لقد قال لأصحابه وهو يشير بأصابعه لمواضع في الجبة « ما أحسن أن يتحدر دمي على هذه الجبة ويجرى عليها هنا وهاهنا ! » .

إن جوائح الصديقين حين تهتف إنما تهتف بصدى ما تحسه من قرب مقادير الله .
فتمزأثرهم النقية في هذه الأرض هي المرأة التي يتراءى فيها ما يشاء الله من مقادير
الموشكة ، فهتفون بما يهتفون به من آمال صادقة ، وهم لا يدرون أن القدر على قيدا
خطوات منهم قد حضر بما يريدون .

لقد وقف فتى صحابي يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله لقد أعطيتني
حظي من الغنيمة ، ولكني لم أسلم ولم أقاتل من أجلها ، بل أسلمت وقاتلت ليصينني
سهم في نقرة نحري ها هنا (وأشار بأصبعه إلى نحره) فأقتل شهيداً فيدخلني الله
الجنة ، فقال له عليه السلام : « إن تصدق الله يصدقك » فلما كانت موقعة من المواقع
جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بفتى قتيل وفي نحره سهم مغروز ، فلما رآه عليه
السلام قال : « أهو هو ؟ » قالوا نعم هو هو يا رسول الله ! . ورأى فيه الصحابة مبلغ
استجابة الله لصدق الصادقين . .

وها هو ذا فتانا يمر بأصابه على أما كن في جيبته الجميلة ويقول ما أحسن أن
يتحدر دمي على هذه الجبة ، ويجري عليها هنا وها هنا ؟ . . نعم ياعمرو ، سيتحدر الدم
عن قريب فما أنطقك بهذا إلا القدر الذي حضر بما تريد !! . .

خرج عمرو مع صحابته بجيبته ، فاستقبلهم مرج ضاحك مبتهج . طلق الهواء . لين
النسمات ؛ فما أن سار فيه حتى تحرك في نفسه وجد ، وثارت بقلبه أشواق ، وكأنما لم ير
في الرج مرجاً ، بل روضة من القدس حضرت له مع القدر بريح الجنة ، فانبعثت من
أعماقه نفحة من هيام : « ما أحسن هذا الرج . ما أحسن الآن لو أن منادياً نادى
يا خيل الله اركبي ! ! »

قال راوى الخبر « فوالله ما كان بأسرع من أن نادى مناد : يا خيل الله اركبي ،
فركبنا وركب عمرو ، وعلم أبوه بركوبه ؛ فقال على عمراً ؛ على عمراً ، فأرسل في
طلبه ، فما أدرك حتى أصيب » .

يا بقدر الله ! أصيب بحجر إصابة ليس لمثلها أن تكون قاتلة ! أصابه جرح صغير
فجعل يخاطبه — وهو يرى الدم يجري منه على المكان الذي أشار إليه بأصابه في
جيبته — ويقول : والله إنك لصغير وإن يشأ الله تعالى يبارك في الصغير ! « فلما كان
المساء ، بارك الله الجرح الصغير ، وجاء بالشهادة المروقة وصعد الروح الطاهر إلى بارئته ،
ودفن الجسم الطاهر في الجنة البيضاء ، ذات الدم الزكي الطاهر ، في نفس المرج الذي
هتف فيه : « ما أحسن الآن لو أن منادياً نادى يا خيل الله اركبي » رحمه الله .

تونس المسئلة

طبيعتها :

تبلغ مساحة تونس ١٢٥١٨٠ كيلو متراً مربعاً ، وهي تمثل القسم الشرقي من المغرب العربي الواقع في شمال قارة إفريقيا . تحدها من الغرب الجزائر ، ومن الجنوب الشرق ليبيا ، ومن الجنوب الغربي الصحراء . وتربطها بالجزائر سلسلة جبال الأطلس التي تعتبر العمود الفقري لأقطار المغرب العربي . والتي جعلت من هذه الأقطار وحدة جغرافية مدمقة ، وتتخلل هذه الجبال سهول كثيرة مشهورة بإنتاجها للحبوب .



أما الشواطئ . في تونس فهي منخفضة على العموم ماعدا في الشمال ، وتحتل السهول ٨٦ ٪ تقريباً من مجموع مساحة القطر التونسي . ومناخ تونس على العموم دافئ معتدل . أما الأمطار فهي غير منتظمة .

وأهم المدن : تونس والقيروان وصفاقس وسوسة وبنزرت وقابس والمهدية وتوزر ومساكن والمنستير والقلمة الكبرى وماطر وباجة والكاف وقرطاجنة .

ومدينة تونس الواقعة على خليج تونس هي العاصمة الإدارية والثقافية والاقتصادية . وكان تاريخها قبل الفتح الإسلامي مجهولاً ؛ إذ أن العاصمة في ذلك الحين كانت مدينة قرطاجنة ، وبعد الفتح العربي اتخذ العرب من مدينة القيروان عاصمة لهم ، وبعد أن استولوا على مدينة قرطاجنة سنة ٦٩٨ م

بدأت مدينة تونس تنافس القيروان حتى أصبحت عاصمة من العواصم الإسلامية التي ازدهرت فيها الحضارة العربية .

السكان :

يبلغ عدد سكان تونس حوالي أربعة ملايين ، ولغتهم هي العربية ، وتعتبر اللهجة التونسية العامية من أقرب اللهجات للعربية الفصحى ، ويدن جميع السكان العرب بالدين الإسلامي ويتبع معظمهم المذهب المالكي ، وقد فتحها المسلمون على يد عقبة بن نافع سنة ٥٠ هجرية .

ويوجد في تونس أقلية من اليهود يبلغ عددها ٧٢,٠٠٠ نسمة ، وقد استوطنوها من أقدم العصور وخاصة بعد أن طردوا من الأندلس ، كما كانوا يلجأون إليها هرباً من الاضطهاد الذي كانوا يلاقونه في أوروبا .

أما الجاليات الأوربية فيبلغ تعدادها حوالي ٢٤٣,٠٠٠ نسمة ، وهي تعيش بالمدن في أحياء خاصة وتتمتع برفاهية لا يتمتع بها السكان العرب ؛ وذلك بسبب المساعدة التي تبذلها لهم السلطة الفرنسية لتمكينهم من الاستيلاء على خيرات البلاد واستغلالها لصالحهم الخاصة .

المنتجات والمعادن :

اشتهرت تونس منذ عهد قديم بزراعتها ، وكانت تسمى في عصر الرومان « مخازن روما » لما كانت تنتجه من الحبوب ، والزيت ، والتمر ، ومختلف الفواكه .

وبالرغم من ثروتها المعدنية الكبيرة فهي قبل كل شيء بلاد زراعية ، ومعظم سكانها يعيشون على الزراعة بصورة مباشرة .

وأكثر المنتجات الزراعية التونسية هي الحبوب إذ تزرع فيها سنوياً مساحة تبلغ ١,٥٩٠,٠٠٠ هكتاراً (١) بينما لا تتعدى المساحة المغروسة بأشجار الفاكهة ٦٣٠,٠٠٠ هكتاراً ، ويحتل القمح والشعير ٩٣ ٪ من مجموع المساحات المزروعة حبوباً ، ويبلغ متوسط إنتاج القمح السنوي ٣,٨٦٠,٠٠٠ قنطاراً ، ويبلغ متوسط الصادرات منه من خمسمائة ألف إلى مليون قنطار (٢) ، ويوجد بالمنطقة الشمالية غابات وأحراش شاسعة استولى عليها الفرنسيون .

ومن أهم المحصولات : الزيتون الذي يبلغ عدد أشجاره ٢٣ مليون شجرة ولا يزال في ازدياد وتأتي تونس في الدرجة الرابعة بعد أسبانيا وإيطاليا واليونان فيما تحتوي عليه من أشجار الزيتون وهي الثالثة فيما تصدره للخارج إذ يبلغ ما تصدره من الزيت ٦٠٠,٠٠٠ قنطار سنوياً من إنتاج قدره ٨٠٠,٠٠٠ قنطار .

وقد اشتهرت تونس بصناعة الشاشية « الطربوش » والسجاد والحزف ونسج الحرير والصوف ، ونقش النحاس والفضة .

وأرض تونس غنية بمعادنها المختلفة وتعد ثاني أقطار العالم المنتجة للفوسفات ، كما يستخرج منها الحديد والرصاص والزنك والمنجنيز والنحاس والبروم واليوتاس . وتعتمد تجارة تونس مع الخارج على تصدير القمح والزيت والفوسفات .

بدء التدخل الأجنبي :

منذ احتلال بلاد الجزائر سنة ١٨٣٠ بدأت فرنسا توجه أنظارها إلى تونس . وقد بدأ التدخل الأجنبي يقسرب إلى تونس ويتسع شيئاً فشيئاً في القرن التاسع عشر ؛ ففتحت أبواب البلاد للجاليات الأجنبية ، وشرع الأمراء في استقدام الفنيين الأجانب وإعطائهم بعض الامتيازات ؛ مما حمل القناصل على التدخل لحماية مصالحهم ، وبهذه الطريقة تمكن هؤلاء القناصل من توطيد علاقاتهم بالبلاط والتأثير عليه ، وخلق المشاكل بينه وبين الدول بسبب المشروعات الإصلاحية التي كان القناصل يوعزون بإدخالها ، لا بقصد الإصلاح وإنما بقصد إحداث الاضطرابات وتقويض أركان الحكم في البلاد ، ثم حملوا الدولة التونسية على أخذ قروض من أوروبا ، وتمكنوا بدعوى حماية هذه الأموال من التدخل الفعلي في شئون البلاد ، وهكذا ضيقت هذه الدول الحناق على تونس ، ووضعت في عنقها أغلالاً عجزت عن التخلص منها فيما بعد .

وقد أدت هذه الحالة إلى فرض ضرائب مرهقة للشعب لأداء الديون التي أثقلت كاهلها ، ونتج عن هذا التصرف قيام ثورة في البلاد بزعامة علي بن غدام سنة ١٨٦٤ م .

وأمام الضغط الدولي وتخرج الحالة سلمت مصلحة الجمارك للأجانب وتكونت لجنة مالية دولية تحت رئاسة الجنرال خير الدين سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٧٠ م) وقد وحدت اللجنة الديون التي بلغت ١٢٥,٠٠٠,٠٠٠ فرنك . وأصبحت هذه اللجنة ميداناً للتنافس بين الدول . واتخذتها إيطاليا

(١) إحصاء سنة ١٩٣٩ .

(٢) كل الأرقام المذكورة مأخوذة من متوسط خمس سنوات .

وانجلترا وسيلة لمقاومة فرنسا ، وعملت فرنسا على إحباط أعمال هذه اللجنة حتى تزداد أحوال تونس استياء واضطرابا فتسلم هي مقاليد الأمور وحدها . واتخذت من المناوشات البسيطة التي كانت تحدث على الحدود بين التونسيين والجزائريين سبباً للتدخل المباشر في شئون البلاد .

فرض الحماية :

وبالرغم مما تمهد به الباي — محمد الصادق في ذلك الحين — من دفع الغرامات وضمان الأمن زحفت الجيوش الفرنسية من الجزائر على تونس بدون سابق إنذار ، بينما نزلت قوات أخرى من البحر في ميناء بنزرت ومنطقة طبرقة . وبعد معارك لم تدم طويلا وصلت القوات الفرنسية في يوم ١٢ مايو سنة ١٨٨١ م . وحوصر الباي في قصره ، وعرض عليه قائد الجيش الفرنسي معاهدة (باردو) وأجبره على إمضاءها ؛ وهكذا فرضت الحماية وظل احتلال الجيوش الفرنسية لعدة مناطق من البلاد ، وصارت هذه المعاهدة المفروضة هي سند الاستعمار الفرنسي لتونس من يومئذ ، وأصبح الشعب يعيش تحت كابوس من الإرهاب لا نظيره ؛ فالحرية العامة لا وجود لها : فلا صحافة حرة ، ولا حرية اجتماع أو قول أو تنقل ، بل الاستناد إلى القوة وفرض الأحكام العسكرية لإخضاع البلاد ، وتكليم الأنفواء .

التعليم :

١ — الكتابات : وهي مدارس بسيطة معدة لحفظ القرآن الكريم ، ومبادئ القراءة والكتابة وهي منتشرة في البوادي والقرى وعددها ١٨٠٠ مدرسة وعدد التلاميذ بها ٣٦ ألفاً .
٢ — المدارس الابتدائية : وقد أسسها الفرنسيون ، ووضعوا لها برامج فرنسية لم يكن للغة العربية فيها نصيب ؛ وكان الغرض منها لإخراج الناشئة من قوميتها العربية ، وقطع الصلة بينها وبين ماضيها وتاريخها لتتمكن من إدماجها في العنصر الفرنسي .
٣ — ولكن العرب لم يرضوا بهذه المدارس ، ورأوا أن يعتمدوا على أنفسهم فأسسوا مدارس حرة من أموالهم الخاصة لإشباع رغبتهم الملحة في الثقافة والتعليم . ولكن المراقيل وضعت في طريق تلك المدارس فلم يتعد عددها ٤٦ مدرسة بها ١٤٢٦١ تلميذاً وتسمى هذه المدارس (القرآنية الأهلية) .
٤ — أما التعليم الثانوي المصري فيكاد يقتصر على (المدرسة الصادقية) ، وهي تؤهل تلاميذها للحصول على شهادتها النهائية ، وشهادة البكالوريا الفرنسية ، وقد تخرج من هذه المدرسة عناصر صالحة تميز النهضة القومية في الوقت الحاضر . ويبلغ عدد التونسيين بالمدارس الثانوية ١٢١٣ تلميذا منهم ٧١٠ بالمدرسة الصادقية وحدها .

٥ — ويوجد كذلك بتونس (المدرسة العلوية) وهي مدرسة ابتدائية ثانوية أسست لتخريج المعلمين كما توجد عدة مدارس ثانوية فرنسية أهمها (اللبسيه كارنو) .

٦ — الجامعة الزيتونية : وينقسم التعليم فيها إلى ابتدائي وثانوي وعال . والتعليم بها يشبه التعليم بالأزهر . ويصرف على هذه الجامعة من أوقاف خاصة ، ويبلغ عدد الطلبة بها عشرة آلاف وهم يتزايدون سنة بعد سنة .

٧ — معهد ابن خلدون : وهو معهد حر به قسم ثانوي وقسم ابتدائي ، يتلقى فيه طلبة جامعة الزيتونة العلوم الحديثة .

ولا يوجد بتونس تعليم عال حديث ، فليس بها جامعات ، وطلبتها يضطرون لاستكمال تعليمهم بالمعاهد الفرنسية رغم ما يوضع في طريقهم من عقبات .

في أفق العالم الإسلامي

مؤتمر العلماء :

انعقد في الثامن عشر من هذا الشهر - جمادى الأولى - مؤتمر العلماء في كراتشي ، وهذه هي المرة الأولى التي يلتقي فيها علماء الإسلام من مختلف أقطاره في مكان واحد . وجزى الله علماء الباكستان كل خير ؛ فهي محاولة ميمونة ندعو الله أن يبارك فيها حتى تؤتي أكلها الصادق الدائم . والمسلمون وإن كانوا قد سئموا الاجتماعات والمؤتمرات ، يشعرون جميعاً بحاجتهم إلى رابطة تلم شعثهم ، وتجمع أهل الرأي فيهم على أمر سواء ، وهم يدركون أن أكثر ما يدور حولهم من اجتماعات إنما يرجع فشله إلى أنه لا يقوم على نية واضحة من « ابتغاء وجه الله » ، ولا يتجه اتجاهاً مستقيماً في فهم الإسلام وخدمة موارثه الغنية المهمة . وإذا اعتل الانحياز إلى الله ، وزاغ الجهد عن توجيه الإسلام وتسكليفه - مهما نقلت وبدأ بها صاحبها غريباً - لم يبق بعد في العامل بركة تصحب سعيه ، ولم يبق للعمل - مهما أضنى عليه من مظاهر الدعاية والإعلان - أساس يستقر عليه وسط هذه الرياح الهوج من فتن العصر المظلم الذي نعيش فيه . ولا عجب بعدئذ إذا وجدنا في المسلمين انصرافاً عن هذا الضرب من المحاولات ؛ لأن الشاردين منهم لا يجدون فيه ما يرد أنفسهم إلى الله وجادة الحق ، والصالحين فيهم لا يجدون فيه ما تسكن قلوبهم إليه .

لذلك فنحن نستقبل مؤتمر العلماء استقبالا من نوع جديد ، نستقبله وفي صدورنا زيج من العواطف الكبيرة : بعضها الحنين العميق إلى التراث الحيد الذي يمثل علماءنا الفضلاء ، وبعضها الحسرة المضيئة أن نراهم مقطوعين عن واقع حياتنا المسوخ المتمرد على الله ، وبعضها الأمل القوي في عهد جديد ترد فيه الفاقة إلى حاديها القديم ، ويبلغ الفجر « الصادق » بعد هذه العتمة القاسية ليتصل ركب المسلمين الشارد بأعلام طريقه المستقيم . ومعنى ذلك كله أن العلماء يجتمعون وفي أيديهم ثروة حاضرة من عاطفتنا : من حنيننا إلى الأمس الذي ولى ، وحسرتنا على الواقع المر ، وأملنا في الغد المغيب وجهه ، ومن دعائنا الحار إلى الله أن يبارك نياتهم ، ويلهمهم رشدهم ، ويكتب لهم التوفيق . وهم كذلك يجتمعون ومعهم عين الله التي لا تبالي إلا بالحق ، ولا تبارك إلا الصدق ولا ترعى الدعوى الكبيرة إلا إذا صدقها العمل الكبير . وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون .

و « المسلمون » تستأذن العلماء الفضلاء الذين اجتمعوا منذ أيام لنضع بين يدي لجان المؤتمر العاملة مهنيين :

١ - خطر رد الفعل :

إن المطلب الذي يلتفت إليه الذهن حين يسمع عن مؤتمر إسلامي في هذه الأيام هو تحقيق الوحدة الإسلامية المنشودة بين المسلمين جميعاً وذلك بدعى في أمة وحدها الإسلام . ولكن هذا المطلب يأخذ في التفكير والمطامعة طابعاً سياسياً ثاراً . وهذا طبعى ما دام المسلمون ممزقين هكذا يأكل أشلاءهم الحباغ المسمورون من كل لون وجنس ، وما داموا يعانون مؤامرات الاستعمار وضرباته

في المغرب والمشرق . بيد أننا في غمرة هذه الحماسة نتعرض لخطر شديد يهدد الإسلام : يهدده من المسلمين قبل غير المسلمين ؛ ذلك أن النهضة الإسلامية اليوم تنسم بالثورة على القصور في فهم الإسلام ، وحده محدود ضيقة من الدروشة التي لا يعرفها . وأصحاب هذه الثورة محفون في ثورتهم إلى حد كبير ، فقد حبس المسلمون أنفسهم طويلاً على معان ضيقة من عبادات الإسلام . وحتى هذه لم تسلم من التقصير والخرافة . وتركوا شؤون الحياة المختلفة فلم يتركها المتربصون لهم « ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » .

ولكننا نخشى على أصحاب هذه الثورة « رد الفعل » : نخشى أن ينطلقوا من زاوية المسجد — حيث حسنا الفهم السكلي ، وتقصير ذوى الفهم السليم في توجيه الناس وتربيتهم — فيجمع فرسهم بعيداً عن المسجد ومعانيه . نخشى أن يكون رد فعل العبادة بمعناها الضيق الذي أزعج هؤلاء الانطلاق من معاني العبادة والتحرر من تسكليفها ، نخشى أن ننقل من طور كانت فيه دعوة الداعي شيئاً من : « اعبدوا الله واتقوه » إلى طور آخر تغفل فيه دعوة العبادة والتقوى ، وتصبح فيه الحركة الإسلامية — في عنوانها — حركة سياسية نائرة تتلمس عاطفتها من نقمة المظلومين على الظالمين حيناً ، ومن النعرة الوطنية أو القومية حيناً ، ومن التزعم بمجد الإسلام السياسي حيناً آخر ؛ فهي مزيج من ذلك كله . وقصارى نجاحها — إذا نجحت — أن تصبح (الإسلامية) نعرة جديدة بين النعرات ، ولوناً جديداً من ألوان القومية . كنا نقول : نحن مصريون أو سوريون أو عرب أو عجم ... فأصبحنا نقول : « نحن مسلمون » ، وحركة النفس في الحالين تعصب لحدود تضيق أو تنسع ؛ وليست هذه ثورة الإسلام وليس انتصارها انتصاراً للإسلام وإن كان التأثير أمة تنسب إليه وتمتف به .

إن الإسلامية التي نستطيع معها أن نقول « نحن مسلمون » معناها أن نسلم لرب العالمين : « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون » . إن مجد الإسلام هو مجد كلمة الله في الأرض ، وإن رابطة الإسلام لا تقوم بين المسلمين إلا حين تشد عواطفهم إلى أساس ثابت من حسن الإسلام لله ، فلا يكون اعتراضهم حين يقولون « نحن مسلمون » إلا اعتزازاً بالنسبة إلى الله والجندية للحق : جندية الطاعة والعمل بكل ما نزل به وحى الله ، وإلا حين تكون دولتهم في الأرض دولة عقيدة تذكر بالله وتدعو إليه : « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين » .

ولا نتحقق هذه « الإسلامية » لنهضة المسلمين إلا بأمرين : أولهما : أن تأخذ العقيدة مكانها في منهاج دعاة هذه النهضة ؛ فيوقظوا المواطن الراكدة — حين يوقظونها — باسم الله ، ويحدوا المشاعر المشبوبة بمحدود الله ، ويخبروا لبنات بناتهم لبنة لبنة حتى يظل دائماً لله « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » . هو عمل شاق طويل ولكنه وحده الذي تسلم به نهضتهم لله . والأمر الثاني : أن يواجه دعاة الإسلام الواقع كما هو ولا يتجاهلونه فإنه محيط بهم ، وأن يدبروا لمشاكل الناس حلولها من هدى الإسلام . ولم يعد يكفي في ذلك الأسلوب الساذج الذي نردده من أن الإسلام يصلح لكل زمان ومكان . بل لابد من حل عملي لكل مشكلة ، ورأى حاضر في كل قضية . ومن أهم مسائل الأمة الإسلامية اليوم : مسألة حياتها الاجتماعية ، ولفاوت الشديد بين طبقاتها ، وانحطاط مستوى المعيشة انحطاطاً سيئاً أليماً ؛ مما جعل غير المسلمين والجاهلين ممن ينتسبون إليه — وهم يرون هذا الواقع المر في كل أنظار

المسلمين — يرجعون الداء إلى الإسلام نفسه ، ويعتبرونه المسئول الأول عنه . فيجب على مؤتمر العلماء أن يبادر فيعلن أن الأحوال الاجتماعية كما هي الآن في بلاد الإسلام لا تمثل الإسلام في شيء . وأن الظلم الاجتماعي تحرمه شريعة الله ، وأن المستوى الكريم العادل في المطعم والملبس والمسكن ، والتعليم والتربية ، والتطبيب شيء كفله الإسلام لكل قاطن في داره مهما كان دينه وجنسه ولونه ؛ لأنها حاجات ضرورية لا تقوم الحياة إلا بها .

إن هذه الكلمة حين يقولها العلماء الفضلاء لها وزنها وخطرها . وعلى حضراتهم مع ذلك أن يوجهوا الدعوة إلى حكومات الأقطار الإسلامية لتعمل على تحقيق ما فرضه الإسلام ، وأن يذكروها بأن العمل — لا القول — هو الذي يعترف الإسلام به ، وأن الخطب والمواظع لم تعد تكفي — دون عمل — لتنقذ المسلمين مما يعانون ، ولترد عنهم عادية المذاهب الخطرة التي تتخذ من المدة الجامعة ، والعين الزائفة ، والواقع القائم المرير لغة خطيرة وحجة قوية .

وهذان الأمران يجب أن يكون مؤتمر العلماء فيهما قدوة لسواه ، ولديه من الكفايات ما يستطيع به أن يفعل الشيء الكثير إذا كان أعضاءه صادقي العزم في بذل الجهد والمثابرة « وإذا صدق العزم وضع السبيل » .

٢ — لا نزال نحير :

« والمعنى الثاني » الذي نحب أن نذكره في هذا المقام : هو أن المسلمين — بالرغم من كل ما يعانون في الغرب والشرق — لا يزالون ينطوون على استعداد هائل لتلبية دعوة الخير ، ولا يزالون كلماذكروا بربهم وبالأمانة التي في أعناقهم بكوا وتألوا . واحتفاظ المسلمين بهذه العاطفة الدينية تحت مطارق الأحداث خلال التاريخ الطويل ، ووسط هذه المعيبات من الفتن يطمئن العلماء العاملين إلى أن الأمة لا تزال بحير ، ويشعرهم بمسئوليتهم ، وبالتقصير الشديد فيما مضى ، ويفصح لهم في الأمل إذا عملوا . كتب الله التوفيق لمؤتمر العلماء وهباً لنهضة الإسلام رجالها ، وأخذ بيدهم وأيدهم بروح منه . اللهم آمين .

وإلى النيل :

أقبلت وزارة رفعة مصطفى النحاس باشا ، وولى رفعة على ماهر باشا الحكم أثر الحوادث المؤسفة يوم ٢٦ يناير . ولنا نشك في أن الذين تسببوا في هذه الحوادث إما بله لا يدرون ماذا يفعلون وإما مأجورون ليسوقوا للمستعمر الفرصة الذهبية التي ظنوا أفلتت منه حين اتجهت الأمة كلها الاتجاه الصحيح الذي لا ينفع مع الفاصب سواه . وقد تم له ما أراد . ولنا في هذا المقام كلمتان كلمة إلى الحكومة الجديدة ؛ وهي أننا نعتب عليها مبالغتها في مسيرة أعداء البلاد الذين اتخذوا من حوادث ٢٦ يناير الألفية قيص عثمان . وكان أولى بها وهي تستنكر الذي حدث أن تستنكر — بأسلوب لا يقل عن ذلك قوة — ما حدث من الانجليز في القتال وأن تعلن أن بربرية الإنجليز التي لم يحدث مثلاً في بلد متمدين كانت هي سبب الحوادث التي لم تحدث من قبل في تاريخ مصر الطويل ، والتي تضررت منها مصر المعروفة بكرامها لضيفوها من كل جنس . أما كلمتنا الثانية لشعب وادى النيل فهي : أن يعد نفسه لجهد طويل ، وأن يدرك المجاهدون فيه أن أخطر ما يعانيه الميدان هو خلوه من القاعدة الثابتة والخطوة الواضحة ، وأنه مالم يفهم العاملون أين هم ، ومن معهم ، وماذا أمامهم أو وراءهم ، ويواجهوا الموقف بجرأة قد تؤلم ، وصبر قد يطول ؛ فإن الواقع سيرد عليهم رداً قاسياً . إن الأزمة أزمة أخلاق في الصغير والكبير . والإنجليز ذوو فن عتيق في اكتشاف ذوى الاستعداد للأمرائش الشقي ...

فالحاجة السياسية الآن هي حاجتنا إلى جيل يستعصى على المرض والعدوى . وإعداداه والسهر عليه هو العمل السياسي المستقيم .

إن في وادي النيل بقعة مباركة ترقب كل ما يدور حولها ، ونرجو أن يكون فيها — بإذن الله — ضمان لمطالبه التي أجمع عليها من كل عدوان يراد بها بليل أو نهار .

في إيرانه :

خطت إيران هذا الشهر خطوة جريئة أخرى بإلغائها للمعاهد والمدارس الأجنبية ؛ مما يجعلنا نطمئن إلى أنها تسير في طريق واضحة نحو أهدافها .

وما أشد حاجة حكوماتنا في مختلف الأقطار المسلمة إلى التماسي بما فعلته إيران ، والإقدام بجرأة على مثل عملها بما يستلزمه من أسباب الحكمة والحذر ؛ فإن هذه المدارس والمعاهد خطر دائم في كل مكان ، وهي رؤوس نعاين تنطلق من جحور رهيبة أحكم إخفاؤها وطلاؤها . ونحن نقبس هنا ما يفتح العين على شيء من المؤامرة الكبرى التي تستعمل هذه المؤسسات وأمثالها في العالم الإسلامي لتحقيق أهدافها . . نشرت مجلة الشرق المسيحي الألمانية^(١) التي تصدرها جمعية التبشير الشرقية الألمانية منذ سنة ١٩١٠ مقالا بقلم « مون لبيوس » الألمانى عنوانه : « دخول التبشير العام في طور جديد » ذكر فيها أهمية المؤتمر التبشيري الذي عقد في أدنبرج سنة ١٩١٠ قال فيه : « إن مؤتمر أدنبرج كان فيه ١٢٠٠ مندوب بينهم ٥٠٢ من الإنكليز و ٥٠٥ من الأمريكان ، ومن مندوبى التبشير الأمريكيين « المستر روزفلت » رئيس جمهورية الولايات المتحدة السابق ، لكنه أرسل رسالة اعتذار عن عدم تمكنه من الحضور ؛ إلا أن المستر براين استطاع أن يحضر — وهو خطيب أمريكا المشهور وقد رشح نفسه لرئاسة جمهورية الولايات المتحدة مراراً — وعلى هذا فالمندوبون الذين يتكلمون الإنكليزية كانوا أكثر من ألف ، والذين يتكلمون الألمانية كانوا ٩٨ ، والآخرون يتكلمون بلغات مختلفة ، ولذلك تقرر أن تكون الإنكليزية لغة المؤتمر . » وتقول هذه المجلة : « إن إرساليات التبشير الإنكليزية والإيرلندية تنفق في السنة ٢,١٠٠,٠٠٠ جنيه في سبيل التبشير . وجميعات التبشير الأمريكية والسكندية تنفق ٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . وجميعات التبشير الأسترالية والأفريقية والآسيوية والهندية تنفق ٣٠٠,٠٠٠ جنيه وما تنفقه جميعات التبشير البروتستانتية في باقي القارة الأوربية يبلغ ٧٠٠,٠٠٠ جنيه . »

واقبس صاحب هذه المقالة من مستندات مؤتمر أدنبرج عدد جيش المبشرين البروتستانت فقال : « إنه يبلغ ٩٨,٣٨٨ مبشراً ، تعضدهم لجان يبلغ عدد أعضائها ٥,٥٠٠,٠٠٠ شخص ، ويبلغ عدد النساء والرجال الوطنيين وغير الوطنيين من موزعى التوراة الذين يشتركون في التبشير والوعظ ٩٢,٩١٣ ، وعدد المعاهد السكنيسية ١٦,٦٧١ وعدد إرساليات التبشير العامة ٣,٤٧٨ ، والتي في الدرجة الثانية ٣٢,٠٠٩ ، وعدد الأساتذة والتلاميذ الذين هم تحت إشراف المبشرين ١,١٩٠,٦٠٢ ، وتوجد تحت سلطتهم ٨١ مدرسة جامعية وكلية وفيها ٧,٩٩١ طالباً ، ولديهم ٤٨٩ مدرسة دينية لتعليم لاهوت النصرانية ، وتخرج المعلمين والمبشرين ، وفيها ١٢,٥٤٣ طالباً ، وهي تهين أيضاً على ١,٥٩٤ مدرسة ثانوية فيها ١٥٥,٤٢٠ طالباً ، ٢٨,٩٠١ مدرسة

(١) راجع كتاب القارة على العالم الإسلامي ، تأليف ل . ل . شاتليه ، تعريب وتلخيص الأستاذ مساعد الباني والسيد محب الدين الخطيب .